

أوديصة عراقية تكشف لنا تحولات بغداد المعاصرة

حميد الربيعي

# جمرات بيارة

رواية



جمرات يارا

حميد الربيعي

«حين أعزف أجلب فضاءات وأوطاناً بعيدة، أجعلها ترفرف مثل الأجنحة».

مزهر الشادي

تية في المسارات ورمال متحركة، مثل الزوابع، وفضاء واسع من الفراغ، «تمبكتو» نقطة نائية في طرف الصحراء الكبرى والوصول إليها مشقة سفر ورحلة ضياع، بيد أنها بالمقابل تبدو مثل منارة مشعة، برغم تقادم الزمن عليها، بضعة عشر قرناً وهي ما زالت في عمق الصحراء.

إليها أسعى وملئي شغف بأن أستكشف هذا الكنز المخبأ في الرمال، والتي أصبحت بمرور الأيام نقطة جذب للباحثين في متون الكتب، فهي كما قيل لي تحتوي سبعمئة ألف وثيقة، مدونة في مختلف العصور، ظلت صامدة وصامته في هذه الأرض القفر، في الطرف الجنوبي الغربي لدولة مالي.

من باريس أقلتني الطائرة إلى أغادير، مدينة منسحبة من عمق الصحراء، بيد أنها تنهض أحياناً، حين يأتيها السياح أو المغامرون، لم تكن الرحلة هي شغلي المهم، بقدر ما تنفيذ وصية أمّ، تقبع في أحد أزقة بغداد وتلخّ بالبحث عن أصل آلة طرب، كانت قد التصقت بزوجها، وفي لحظة دفنها، بعدما قتل، لم تسمح البلدية بدفن آلة «الخشبة» معه، بحجة أنها تراث شعبي لا يجوز دفنها في قبر غريب.

الحكاية بحد ذاتها غير مغرية، لكنها تشكل علامة مهمة في حياة أمي، لهذا أسرعت بالذهاب إلى «تيمكتو»، لعلي أجد أيّ مصدر يشير إلى أصل هذه الآلة، لقد عزّ عليها أن لا تدفن آلة الطرب، التي اعتاد زوجها العزف عليها طيلة حياته وشكلت عالمه الروحي، سعيها لدفن الآلة مع الجثة كان بناء على رغبة الزوج، لكن لاحقاً شكّل نقطة تحول بحياتها، بعدما تمّ الفصل ما بين الجثة والآلة، إذ اعتبرته إهانة متعمدة وغيباً بحق مزهر، الذي اخترع آلة الطبل هذه.

استأجرت دليلاً وأربعة جمال وانطلقت من طرف مدينة أغادير باتجاه الصحراء الكبرى، قيل لي إن مدفن الكتب يبعد مسيرة خمسة عشر يوماً، قاطعاً الرمال المتحركة والتيه والفراغ، في أرض مترامية الأبعاد ولم يسكنها بشر من قبل، عدا الجن الذي يجوب أرجاء الصحراء بحثاً عن بني البشر الضائعين في رمالها.

للوصل إلى المخطوطات كانت القوافل سابقاً تتطلق من مدينة «سلا»، التي تقع على ضفة نهر الرباط، بيد أن تقدم الزمن أتاح للطائرات الهبوط عند أغادير، بعدما أنشئ فيها مطار حديث، بمدرج تغطيه الرمال أحياناً، فيعوق حركة الهبوط.

حين سألت «ابن عربي»، وكان قد مرّ بهذا الطريق قبل تسعة قرون، عن أقرب المسالك، قال لي: «شمّ الندى، فهو دليلك إليها».

يبدو الرجل متعباً من طوال السفر، بعدما نهض من قبره في دمشق وقرر قطع غربته عائداً إلى مدينته القريبة من إشبيلية، معللاً رحلة العودة بلا جدوى من طوال الاغتراب، قافلته -التي مررت بها قبل يومين- مكونة من ثمانية عشر بعييراً، لا دليل يرافقه فهو قد خبر المكان منذ خروجه الأول باتجاه أرض الكنانة، يبدو عليه الإحباط من مشوار حياته السابق، لهذا قرر أن يدفن نفسه في

مدينته الأولى «مرسية»، المحببة إلى نفسه.

على العكس من ليون الوزاني، فقد كان نشطاً وحيوياً وهو يشير إلى عمق الصحراء، عندما اقتربت وجدت القافلة طويلة، تزيد على أربعين بعيراً، برفقة ثلثة من الأفارقة، أخبرني بنيتّه التوجه إلى أرض «العفراء»، فالحروب تشتعل في القرن الإفريقي، وأنه بناء على تكليف من البابا، سيذهب إلى هناك في محاولة لإطفاء النيران.

حين اقتربت من «تمبكتو» لاحت المنائر، تشبه القنب في شكلها، مبنية من الطين ونشارة القصب، اثنتا عشرة منارة متساوية العلو، إلا واحدة، يبرز جزؤها العلوي الذي يعلوه نصف قوس ونجمة ساقطة، خلت أنها تهرأت بفعل الزمن وأن عتمة أضلاعها ناتجة من مرور الريح فوقها.

لحظة الوصول كانت بداية حلول الظلام في الأفق وهذا ما كنت أتمناه، لقد أوصيت بالوصول في مثل هذا الوقت، فهو المناسب لسقوط ندف الثلج، المنظر يبدو من بعيد أشبه بخرافة، الثلج سيبدأ بالكثافة أثناء سقوطه فوق مبنى المخطوطات فقط، بينما بقية الصحراء تسفها الرمال والهواء الساخن.

قلت إنني في حلم، لكن الدليل صحح المعلومة، بأنه من حسن حظي أن أرى الثلج يتساقط، فهو علامة على وجود الرجل الأبيض، هذا وقت ظهوره، فهو يغيب مواسم، لكنه حين يعود يجلب معه الثلج، تلك وسيلته بالحفاظ على الكتب والمخطوطات، طيلة هذا الزمن السحيق.

«صفه لي، شكله، تصرفاته..».

«ستراه بنفسك».

مثل بهلوان يلعب بسيرك، تدلّى بحبل رفيع هابطاً من السماء، أبيض تلمحه حمرة خدين وطرارة جلد، خلت أنني أرى شبّحاً، بعد قليل تجسّد أمامي بهيئة شاب وحيوية مفرطة.

«ما خطبك؟ أنا عزّاب هذه الدار، حامي حروفها، المنقب بين سطورها، الناخذ لخرافتها والمُحيي لمجدها، ولو بعد حين».

«جنّت باحثاً عن أصل آلة طرب، يستعملها المهاجرون وعمال الموانئ، طبل إن نقرت أصابعك على جلده يصدر صوتاً قوياً، يشبه أصوات الأبواق، بيد أنه أشدّ حدة».

«أعرفه، آلة «الخشبة» التي يستعملها «النور» ويعزف عليها «خَسّابة» البصرة».

«هي ذاتها».

حين علم عن نيتي بالتوجه إلى بغداد وعدني بأن ينقّب في السجلات، وسوف يوافيني هناك، وذكر في نهاية الحديث أن اسمه منتظر، الناس اعتادت أن تلقبه هكذا، أما هو فاسمه مهدي، فقط مهدي.

إلى بغداد يعود ابن مزهر الشادي، وأمه «يارا» هي من أغرته بهذه العودة، برغم مقتته لهذه المدينة.

في العام السادس عشر من الألفية الجديدة، وبعد ثلاثة عشر عامًا يحتويه المطار نفسه، بعدما صار مكبًا لأدوات الخردة، البلاط قذر والعمال يتحركون بكسل، الموظفون عند الساعة الخامسة ما زالوا نيامًا، ركاب الطائرة الفرنسية ينتظمون بخط طولي أمام ضابط الجوازات، شكله يُنبئ بأن ثمة مشكلة تعزّيه ويعبّر عنها بالتبرم أو النظر باحتقار إلى الصف الواقف أمامه.

يعود إلى الديار، في صالة مطار بغداد ذاتها يبصره ضابط أمن بنظرة استهجان، كان يفتش في جواز السفر وكان ثمة خطأ سيكتشفه، في رسم العلم الفرنسي مثلاً، لكنه بقرف رمى الجواز نحوه، مع توصية بالمرور على حانة الأقدار.

«أين أجدها؟».

عامل النظافة قاده من اليد متجنبًا الردّ القاسي من الضابط وطمعًا في «بقشيش» عالٍ، من مسافر فرنسي.

«بعد هذه الصالة ثمة بناية ملحقة، تجدها هناك».

اجتاز بوابة الجوازات وممرًا طويلًا، تنتكّم الحقائب فيه، وبوابة مهشم زجاجها، عندها وجد نفسه في حانة الأقدار.

هي تشبه حانة سيدوري، عند تخوم المدينة، في الطرف الصحراوي، حيث الرمل ينثر حباته فوق الجباه، كما القدر معتمة بعض الشيء مع أن ثمة إنارة بلون الشفق، تتسلل عبر شقوق ستارة في الجانب الشرقي، موائد مصنوعة من أعواد الخيزران، يقعد بها شخصان، ربما عشر موائد، تبدو من البوابة شاغرة، لكن ما إن تدلف حتى تصدح ثرثرة ناعمة أقرب إلى الهمس، أشخاص يتحدثون بلغات ولهجات عدة.

الحانة يأتيها من يبحث عن قدره، فهناك يجلس الملك ذو اللحية البيضاء، يكرع الجعة، ما إن تسأله حتى يقول لك قدرك.. بالضبط متى تعض لسانك.. فأنت لم تأتٍ لطرف المدينة، حيث تبدأ الصحراء، غير البحث عن سكرة الموت. بقايا الليل أيضًا يلفّ المكان، فلا مفك إلا الولوج، عند ضلفة الباب نادلة سمينية، لكنها رقيقة الملامح، تحت أقدامها يفتح العالم السفلي، تسمع ضجيج كالماتق، تسأل وتسمع الطلب، أيّ نبيذ ترغب؟ إنها سكرة الموت قادمة، فلا مفر، لنمضيها في هرج الدنيا.

تدفع نديمها بساقها، تبتعد قليلًا، لكن في حضن ملاك الموت يقع.. الليلة سكر وغدًا لنا أمر...

«هل أحدثكم بما رأيت اليوم؟ من مدينة الأحلام جئت، هنالك العطور والأزياء والأضواء، لكنني لم أجدها هذا النهار.. جئت أسأل عنها...».

ليلة الأفلاك من يدانيها؟ السكارى في حانة الأقدار ينتظرون العريضة هذا النهار، والغد أيضًا.  
أيام الأحداث الجسام والابن بعمر ثلاثة عشر عامًا، كان ينظف الحمامات ويتوارى عن شخص اسمه غضبان الحسن، في ردهات المطار قيل له:

«أنت ابن «كاولي»، بلا وطن، من أمّ تدّعي أنها أرمنية، يعني لقيط، لا أصل لك، نحن نريد أن ننظف ديارنا، فالى أين تسافر؟ أيّ البلدان يقبل بك؟».

قبلها ظلّ يسعى للخروج من هذه المتاهة، دلّه أحدهم أن يكتب رسالة إلى «كونديرا»، الكاتب الشهير، عرض فيها محنته تجاه الأوراق الثبوتية، فوعد بكتابة رواية، نسقها المضمّر خريطة دليل لخروج الفتى من المأزق، لكن يبدو أن الكاتب قد نسي الأمر، أو أنه كتب الرواية، بيد أنها لم تصل إلى هذه الأراضي...

سنوات من الانتظار إلى أن قدمت «أنجيلينا جولي»، تتفقد أطفال الشوارع، ثمة من كلمها، فوجدته في إحدى ردهات المطار ينظف الحمامات، أخبرها بالحكاية وانتظار خطة الهروب التي سيضعها «كونديرا»، وعدته خيرًا بأن تلقاه في باريس وتتداول في الأمر معه.

في زيارتها الثانية لم تحضر شخصيًا، بل جاء شخص، رقيق مثل نسمة، قطع الصبي إلى أجزاء وشحنها عبر الحدود في أربع حقائب، شاء الحظ أن تقع حقيبة الرأس بيد قس من «لينخن شتاين»، المكان الذي لم يسمع به أحد، فطلب من كنائس أوربا البحث عن ثلاث حقائب تصدر أنينًا قريبًا من حشجة المسيح بلحظة صلبه.

حين اجتمعت الحقائب الأربعة سلمت إلى خبير في المونتاج، اشتغل سنوات في موجة السينما الفرنسية الجديدة، وفي النهاية أسس شركة للقص واللصق عبر العالم.

ظل يعمل على محتويات الحقائب لسنة كاملة، يقصّ ويلصق، وفي اليوم التالي يعيد الترتيب من جديد، في النهاية طرح على نفسه سؤالاً: إنه دميم الخلق، فلم لا أجعله بهي الطلعة؟

«هكذا خلقت جميلًا وأنيقًا وأحمل أوراقًا ثبوتية، تابعة إلى الموجة الفرنسية، وأجيد اللغة بطلاقة، بعدما كنت بلا هوية، من أمّ ناجية من مذبحه، وأب لا يعرف أصله».

الجالسون في حانة الأقدار تركوا الطاومات وتجمهروا قريبًا من المشرب، العاملة رحبت بابتسامة مشرقة وبدأت بتقديم وجبة جديدة بكؤوس مذهبة احتفاء بهذا الشاب، الذي أثار حديثه الاهتمام بحيث إن الندامى تحلقوا حوله في البدء ومن ثم أمطروه بأسئلة لا علاقة لها بحكايته، إنما عن باريس وأضوائها، إلا أن أحدهم بادره بسؤال، غير متوقع:

«أين تقع «لينخن شتاين» هذه؟».

السادة العارفون وقرّاء الطالع وراسمو المخططات تريثوا قليلاً ولم ينطقوا، بل كانت أيديهم تطلب الهدوء، كانوا يحثون الشاب على تكلمة بقية الحكاية، هو قرأ الهمسات وأدرك بأن عليه أن يتأني قليلاً، ريثما ينجلي الموقف عما يحدث بهذه الحانة، أدرك من نتف الأحاديث أنها بالنهار تتحول إلى دائرة أمنية، مختصة بشؤون الوافدين، وفي الليل يسكنها العرافون، الذين يقرؤون الطالع لمن

يقدم إلى بغداد، عندها وبعدما كثر الهمس بادر بسؤال:

«من يخبرني بما سيحدث لي بهذه المدينة؟».

لحظتها توزعوا إلى مجموعات، كل اثنين يجلسان على طاولة منفردة، النادلة أخبرته:

«ثمة تخصصات، كل زوج مختص بجانب من الحياة، يجب أن تمرّ عليهم جميعاً، ثم تنتهي بكبير العرافين، وهو سيوجز لك الملخص».

ظلاًّ يتتقل بين الموائد ردحاً من الزمن، لم يملّ أو يضجر، بل بدا مبتسماً للشروح التي تقدم له، عند الطاولة ما قبل الأخيرة توقف، بعدما نوى مغادرتها باتجاه العاشرة، لقد استرعى انتباهه الرجل الذي يرتدي السدرة العثمانية والذي يكتنّى بالوردي، بجواره رجل أبيض الشعر، رغم أنه يبدو شاباً، يسمى الدكتور فالح.

«أستاذ، أنت ترسم صورة سوداوية عما آلت إليه الحال».

لم ينتظر الجواب، بل انسحب بخطوات متعثرة إلى الخلف ثم مشى متباطئاً نحو الطاولة العاشرة، كانت التقارير تردّ تباعاً من بقية الموائد، فيها آراء وأفكار من مرّ عليهم، سمح له بالجلوس عبر إشارة مدغمة من حركة اليد، باتزان وجبروت عالٍ رفع كبير العرافين رأسه، كان قد انتهى من قراءة تسعة تقارير، بصوت يشبه الهمس قال:

«بعد ستة وعشرين يوماً ستلاقي المرأة، إنها بالتأكيد ليست والدتك، هذه «حزورة» ستعرفها لاحقاً».

قلب ورقة صفراء، عليها خطوط سوداء ورسم مبهم، رفع نحوه رأساً مائلاً قليلاً إلى اليمين:

«طوال رحلتك في بغداد سترافقك سيارة مفخخة بالديناميت، اطمئن لن تنفجر عليك، إذ هي تجوب الشوارع منذ فترة، ولم يُتخذ قرار بها بعد».

بصوت أبوي حنون وفيض من ابتسامة عذبة أكمل:

«اتخذها وقاية، ابتعد قليلاً عنها، اجعلها ساتراً، ما دمت ستتجول في الأزقة».

أضاف بنوع من الصرامة:

«السيارة مسجلة باسمك، والديناميت مكس بما يشبه ظلك، سائقها لا يعرفك شخصياً، أعني أنه لا يميزك عن الآخرين».

أسقوه نبيذاً أحمر، وعند الباب المظلل ودّعوه بألفة، طالبين منه الحذر وعدم البقاء أطول من المدة المقررة.

في باريس، بعد سنوات من إقامتي فيها، التقيت «كونديرا»، كنت بصحبة المونتير، الذي جمعني وأجرى عملية القصّ واللصق، في إحدى مقاهي الحي الثامن، الحانة الأيرلندية في شارع الزاس لورين، مقهى دي فلور- بوليفار سان جريمان، ما إن رمقني حتى هبّ واقفاً، كأنه تذكر أمراً ملحاً، في نيتي المعاتبة على إهماله لي.

«كيف يتسنى كتابة رواية، وأنا لا أعرف تاريخ ميلادك؟».

ضحكت، أنزل يده عن كتفي ثم قادني إلى الجلوس بجواره، طلب أن يطلع على أوراق أُمي حتى يبدأ المشروع من جديد، وجدت الحرج بأن يطلع رجل غريب -لا يكتب رواية بسبب غياب تاريخ الميلاد- على أوراقٍ تحتوي على رسومات وخطوط وحسابات وأرقام ومدونات يومية، فضلاً عن شروح بلغة غير مقروءة، لم أوافق على فكرته وفضلت التريث.

كانت أوراق أُمي تصلني كل حين، عبر طير، أجدّه مقرّفاً من البرد عند حافة الشباك، ما إن أفتح الضلفة حتى يدلف فرحاً، يرفرف قليلاً ثم يتحول إلى ورق، الطائر لا يحمل في منقاره أوراقاً، بل هو يصير ورقاً، هو مدونات امرأة من بغداد.

مرة فكرت باغتنام ظاهرة الطير فأبعث رسالة إلى فتاة هناك، إنها تشبه فصّ الياقوت، حين يكون في العنمة، متألّنة وذات ألق وهاج، قضيت سنوات معها فكان لا بدّ للرسالة من أن تحمل كلمة: مشتاق.

فرشت العطر على لوح زجاج، شكل طبقة محببة، ندية ورقيقة، كتبت فوقها الكلمة، ثم حملتها بريقة وعناية وحرص باتجاه الفضاء، مددت يدي عبر فتحة النافذة، نفخت على العطر فطار، كان يحلق باتجاه الشرق.

قبل بضعة أشهر لم يأت طائر الورق، بل كتلة سوداء منتوفة الريش، من رأسها وصدرها، كأن ثمة من تعمد ترك علامة عليها، نذير أمر ما جلت قد وقع، كانت تضرب زجاج النافذة بقوة، ربما تتقي البرد الذي ينزل على هيئة حبات بلورية، ما إن فتحت النافذة، حتى خفق جناح بوجهي احتجاجاً على التأخير. من مخرجها بصقت ذرقاً أخضر، سائلاً ولزجاً افترش مساحة ورقة بيضاء، حط فوقها الطائر، مشدوهاً مما يجري، ثمة كلمة تتشكل بملء الصفحة: «تعال»، لا لبس فيها، كبيرة وواضحة وحروفها نافرة إلى الأعلى.

يخيل إليّ أحياناً أن موضوعه الرسائل منهلوستي، وأنها محض افتراء، لا وقائع تسندها، إنها حمى انقطاع الصلة، يخلقها عقلي الباطني ليسدّ ثغرة في حكايتي، فأنا أعرف أن ثمة هوامش ومساحات فارغة بتلك الحكاية، ولا بدّ ذات يوم من خلال مسعاي ردمها، أو على الأقل، ملء فراغاتها، غالباً ما تسبب الأرق وأن لا أرضية صلبة أستند عليها، فليس من المعقول أن شاباً تجاوز العقد الثاني ولا يدرك حكايته جيداً.

«لا بدّ من العودة إذن».

أطلع الرسائل التي يتركها جسد الطير، أحفظ بعضًا من مدوناتها، حين أنقلها إلى الورق، بيد أنني في الحقيقة أشك بقدره الطائر على ما يفعله أولاً ومغادرته لنافذتي لاحقاً، حكاية غرائبية لم أخبر أيًا من معارفي، أكتم الأمر، منتظرًا الرسالة القادمة لتأكد من الحالة.

في الرسائل السابقة، أغلبها نتف من أوراق المبعثرة، تتشكى الأم من آلام الشيخوخة، تبتّ حنينًا خفيًا بأن ترى الغلام الذي خرج ذات نهار ولم تسمع أخباره، ربما تودّ أن ترى عوده وقد نما قليلاً في بيت الأسطى خلال أعوام اختفائه، أو ربما ترغب أن ترى حزّ السكين على الرقبة حين هدّد بالذبح.

بالتأكيد ثمة الكثير الذي تجهله، أزمنة وأمكنة وأحداث مرّت على الفتى، فهي لم تكن تتعدى معرفتها بما جرى، إلا القليل، والذي انقطع لحظة اختفائه ذات نهار من بيت الأسطى في «قنبر علي»، لكنها انتظمت مع أخباره ثانية عبر الرسائل، حين تولى القسّ في الكنيسة النائية نقل أخبار ضياع أجزائه الثلاثة في الصناديق، لقد كان القسّ من الطيبة بحيث ينقل لها المستجدات، دون أن يراعي لهفة بحث أم عن ابنها الضائع.

«لم أعد أقوى على الزمن، لقد وهنت وشخت وهرمت، زمن الموت دنا، أشعر بطائره قريب، لم يزرني بعد، لكن خفق أجنحته يقترب من مسامعي، لقد عيل صبري، فلم تعد لي رغبة في الحياة بعد الذي جرى..»

... أنت تعرف أنني لم أكل بالنجاح في ذلك المسعى، كأني محتمّ عليّ العيش غريبة وأموت غريبة، وإن كل ما قدمته ذهب هباء، لم يثمر أو يقرب مني ما أبتغي...

... كان طلبًا بسيطًا، منذ عرفت أنني مهجّرة وبحاجة إلى أوراق رسمية، أوراق ثبوتية تتسبني إلى هؤلاء القوم... آه من هؤلاء القوم... ناكري الجميل».

في رسالة سابقة تقول: لم أجد موطئ قدم بأرض هذه البلاد، فعلى الأقل حين الموت، ثمة لحد يواريني، قبر بسعة مترين.

هكذا ببساطة تريد مني العودة، لأحفر لها شقًا، حين تعضّ لسانها، أواريتها فيه، مطلب بسيط وسهل، أيّ سمسار قادر على تدبيره، لقاء مبلغ زهيد، لكن ليس مع هذه السيدة، إنها قضية كبرى، في حياتها وعيشتها وستكون كذلك في مماتها.

قيل عنها أرمنية، أنت مع أقوام رحلوا منذ مئات السنين، حسنًا هذه القضية صارت معروفة ومتداولة باسم التهجير القسري، والقضية فات عليها ما يقارب القرن، فلم هذه المرأة تفتق الجروح العتيقة؟

يا ابني إن أمك جاءت إلى بغداد مع سبايا «الأتوريين»، أولئك القاطنين في سهل «نينوى»، وإن من سبي أمها هو القائد العسكري لتلك الحملة.

نحو أمّ، في أزقة المدينة، أسير، بعدما اجتزت بوابة المطار وحانة الأقدار، تلك التي جلبت شريط الترحيل منذ ثلاث عشرة سنة خلت.

في «قنبر علي» بنت أسطى طه تصحو مبكرًا، لقد راودها الحلم نفسه، كما يحدث من شهر ونصف، بعدما وصلتها رسالة العطر، كأنما رؤيا تأخذ بخناقها، بيد أنها هذا الصباح أيقنت أن «ريان» أتت لا محالة، طوت فراشها عن سطح الدار، كورته بطرف السرير الخشبي، بعض الندى يبلل رموشها، لكنها كالعادة تتكاسل عن غسل وجهها، قبل تحديد مهامها لهذا اليوم، ازدحمت في رأسها الترتيبات.

في البدء استقبله، رؤيته أولاً.

ظلت سنوات طويلاً تنتظر خبراً يأتي، غير مقتنعة بأن خفق جناح طائر يحمل لها النبأ، لكنها تتوقع أن تلك السنوات ليس من السهولة نسيانها وطبيها، إنها صور حية عن وقائع، عاشها معاً وشعرا بأن الزمن، كلما طال، لا بد أن يقرب الأشياء.

يومياتها مليئة بذلك الماضي، الذي ما زال يعيش بداخلها ويحمل عبق العمر، الصور تراكت، شيء ما كان يجمعها ويضعها في خانة اللانسيان، ممهورة بتشعبات الحياة، بدءاً من أول الصباح، عند مائدة الإفطار ومروراً بالجولات في بغداد القديمة، شوارع، أسواق وأبنية، كانا يتلمسان الحجر ويصمان فوقه ويظنان أنه باقٍ، لا يمحوه الزمن، بل سيظل شاهداً على الرفقة التي نشأت بمحض الصدفة، بين فتى مهجر وفتاة تدرك أن خطواتها ستقوده إلى الحميمية والانسجام بالزمن ومعها.

ما زالت غير مصدقة بأنه عائد هذا الصباح، لقد رأتها في منامها يسير في أزقة الحي، فزّت مذعورة، طراوة الحلم جعلتها تغفو بسرعة ثانية، ثمة صوت ينادي عبر سياج البيت، لا يشبه صوت «ريان»، فلم تسترع انتباها، كالعادة أولاد الجيران يحاولون، كلما صعدت إلى السطح يرونها لؤلؤة مشعة، بيد أنها أغلقت محارثها على حلم، يمتدّ لأكثر من ثلاث عشرة سنة خلت، حين كان رفيقها في المسرات يختبئ في بيت أسطى طه.

لا تعنيها التفاصيل، بالنسبة لها العودة هي الأهم، قرأت خلف كلمة مشتاق، التي حملتها رسالة العطر أيضاً من الحكايات، تلك التي لم يتداولها سابقاً، وستجعل النوافذ مشرعة على وسعها، تخيلت أن خلف الكلمة ثمة فيضاً من المشاعر، تلك التي تخبئها منذ أعوام والتي تتوقع أنها فاضت فأغرقتة في الغربة، مما حدا به لكتابة الكلمة على العطر..

لحظة تكاثف العطر، لم تصدق أنفها، فهو دون غيره مميز برائحته الخاصة، تلك التي ألهمت عواطفها لحظة صنعه أول قارورة من التراب، لقد عجن أديم الأرض ثم كثفه واعتصر منه القارورة، عطر أخاذ ويجعل كل الحواس يقظة، يتغلغل عبر المسامات فيتمدد الجلد والجسد لتعقب به روائح الأرض والفضاء، لم تر له مثيلاً، برغم بحثها المتواصل عمّن يشابهه.

رسالة العطر حطت في حجرها، ما إن قرّبتها من أنفها حتى انطلق شذاه مسكراً من أحرف الكلمة، كل حرف يدفع دفقاً خاصاً، ثم تكوّر وتكوّم قرب أنفها، عندها صاحت، لا تدري ماذا قالت، لكنها

ألفت أباهما فزعا يقف بجوارها، ممتقع اللون وشاحبًا، بيد أنه وبسرعة استرخى حينما أبصر ابنته تبتسم.

لم تقسر له ما جرى، وهو -أيضًا- غض الطرف عن تصرفها، مع نفسه عاد يردد: «إنها ابنتي التي أعرفها، لن تتغير»، تاركًا إياها في حمى الهيام وراء شذا العطر، الذي شكّل غيمة، مما دفعها لأن تنام تلك الليلة مبكرًا، قرب سلم السطح، لم تأو إلى سريرها كالعادة، هي ترى في ذلك إيذانًا لذكرى عبقة ما زالت تلازمها وتحرص على الإمساك بتفاصيلها، إذ غالبًا ما تعيدها مع نفسها.

«ما زالت السيارة تحمله باتجاه المحلة».

أسرعت بارتداء بنطلون الجينز، كيفما اتفق دخل في وركها وتطوى، لم تبصر أناقتها فأمامها مشاوير، يجب إيفاؤها أولاً، ليس الأناقة بحد ذاتها وليس التجميل، بل الحضور المكثف لوجودها بجواره.

إلى سوق حنون الصغير حيث بائعات القيمر، وإلى كعك السيد بجوار جامع الحيدر خانة، كعك بالسّمسم، تفتوني وخبز حار، تعدد مع نفسها الحاجات التي كان يهواها، تتذكره حين تضع «صينية» الفطور وأبوها قبلها جالس ينتظر، حتى تبدأ تعداد المحتويات، بصوت عالٍ، الأب ينهرها وهي تودّ الآخر أن ينهض من كسله، قبل إتمام سرد القائمة، يكون قد تربّع أمام الطاولة، عند ذلك تميل إلى الصمت، تتذوق فطورها هنيئًا بحضوره، الكسل تراه نابغًا من تعوّده على صوتها، حضور صوتها يعني بدء نهار جديد.

سبع سنوات من وجوده معها شكّل عالمها، بل أعاد صياغة ذلك العالم بموجب وجوده، لا شيء يحدث إلا ويكون هو أو طيفه قطب الرحي، اعتادا العيش معًا، تحت ظلال الأسطى طه، كأنما ابنان له وهما يتشاركان بكل شيء كإخوة، حتى ملابسه ترتديها، في داخل الدار، حين يغضب تقول له:

«لم أنت بخيل؟».

لا يضحك لكنه يسترخي، يقرب آلة طربه ويبدأ العزف كأبيه، يريد أن ترقص، وقت الظهيرة والمغرب يحرم الأب الغناء في باحة البيت، يشاطرهما المرح ليلاً، هما يمارسانه بعيدًا عن رقابته في الصباح، وقت طلوع الفجر أو وقت قيلولة الظهيرة، هند تعزف وريان يرقص، وإن تعب فتقلد صوت أبيها:

«أنت ترقص أجمل من أمك «يارا»».

عند مدخل الزقاق وقفت، أهدلت يديها من ثقل المشتريات، جالت بنظرها في الأرجاء، وبحسرة تنهدت:

«أرجوك، لا تنتظر إلى الخراب الذي حلّ بنا، تذكر، فقط، هنا مرتع صباح».

تعيد الحي أمامها كشريط سينمائي، يمرّ سريعًا ويتوقف عند المحطات الرئيسية، عند ذلك الدفء الذي اكتنف الأشياء وجعلها قريبة من النفس، صورة مزخرفة لواقع، فيه البهجة والفرح.

كانا يلعبان الحجلة وقت المغيب، يرمي لها القرص فوق مربعات الخطوط وهي تقفز فوقها، يمنعها أن تمسك ساقها المنتنية حتى تحتفظ بتوازنها، تدرج القرص وتخرجه من الخانة الأخيرة، عندها تطالبه بالربح، السهر بالليل والسمر تحت ضوء النجوم، فوق سطح الدار.

دلفت إلى البيت، أكرة الباب أصرت بصوت يشبه صوت صوص صغير، نظرت إلى المقبض، حتمًا سيسري الدفء إلى أصابعه، في كل زوايا البيت ثمة ذكرى، ريح من روح تتحرك هناك، تنتظر القادم لتعيد عليه الأيام والصور، صور الحياة التي ألفاها وعاشاها وتركا وشائج معها. مقبض الباب والنافذة ورسومات الجدران في غرفتها، الآثار المتبقية من وجوده ستهفو نحوه، حالما يعود، ستصبح حية، لن تبقى صورًا، بل حيوات زاخرة ونابضة، هي تظن أن ذكراه متضمخة بهذه الأرجاء.

الأب من طرف خفي يراقب حركة البنت، تبدو أحيانًا نشيطة وطافحة بالحيوية، في لحظات أخرى ينتابها الخمول، فتتهفت حركتها، وجوم يعترى الوجه، ساهية لدرجة نسيان ماذا تفعل، تضع الماعون ثم ترفعه، وكرّة أخرى تعيده، بعدما تمشي خطوات.

لا يشعر تجاهها بالغضب، فهي ابنته الوحيدة والمدللة، طرح عدة تفسيرات لتصرفاتها، في النهاية أجل الموضوع، فهو الآخر برم من حياته، خاصة خلال السنوات الأربع الأخيرة، تمنى الخروج وأن لا يسأل عما يعتمر بداخلها، إنه من الجلد بحيث يتقبل أيّ طارئ، عليه الخروج للبحث عن عمل أوّلاً.

هي يضنيها التفكير الزائد بما آل إليه الوضع، هل سيتقبل ريان ما جرى؟ الخراب الذي عثّش، هل سيغير من نظرتة؟ هل سيكون مرحًا كما كان، أم أن الحياة عركته وغيّرت الكثير من طباعه؟

هند تحاول التشبث بصور الماضي، حينما كانا صغيرين، ريان بعمر ست سنوات وهي تصغره بعام، تسأل نفسها: «كيف يتسنّى لها إعادته إلى تلك الأيام؟».

ليس من جهة ساحة زبيدة، حيث قبر الولي الصالح واليهودي ذي الثعبان، أدخل، بل من جهة سوق الشورجة، حيث يكون الولوج مباشرة إلى سوق حنون الكبير ثم يليه حنون الصغير، عبر متاهة من الأزقة الملتوية صعوداً وتوغلاً في الحي، هنالك عند منتصف المسافة ما بين المدخلين يقع بيت أسطى طه، إنه يشكّل ركناً مثلثاً لزقاق ضيق، يمتد أولاً باستقامة ثم ينحني نحو الشرق ليؤدي إلى مكان القبور، صوت المؤذن حين يلعلع بالأذان يصل منقطعاً، لصعوبة وصول الصوت عبر هذه الانحناءات الحادة في الأزقة، كنا نعلم أن رفعه للتكبير الأخير معناه أن أسطى طه سيدخل البيت، عندها نكفّ عن الرقص وتبدأ هند بإعداد الطعام.

صورة الحي مرسومة في مخيلتي بشكل مشوش، ثمة الكثير من الرثق تحتاج، الحكايات ذاتها التي يتداولها الناس عن ثعبان قبر اليهودي، فضلاً عن ميلان قبر الولي الصالح، يشوبها التشويش وعدم الدقة، أحياناً حين أتذكر أزقة الحي أدعي مع نفسي لا أعرفه جيداً، برغم أنني عشت فيه متوارياً سبع سنين، تلاشى الدفء شيئاً فشيئاً وحلت مكانه القتامة، لم تبق الصورة حية، طافحة بالحياة، على مرّ الأيام خبت وصارت مثل الوهم، بأني عشت هذه الأحياء، بتفصيلاتها وتشعباتها.

في ما بعد وأنا في فرنسا حاولت جاهداً تتبّع الشبكة العنكبوتية، ما كتب عن الحي كي أصفي الصور المتداخلة في ذاكرتي، وجدت المعلومات شحيحة وأن هنالك صورتين فقط، في إحداها منظر عام للدجاج المذبوح والمعلق في سوق حنون الصغير، في الأخرى يظهر كدس كبير لخزانات كبيرة.

الحي ليس بالسكني ولا بالصناعي، بل هو خليط من مجالات عدة، ذو طابع شعبي وتغلب عليه الألفة بين الناس، في منظر الدجاج المذبوح تبرز امرأتان بعمرين مختلفين، لكن تجمعهما ضحكة حلوة، ثمة حديث كان يجري بينهما، حين التقطت الصورة، التي علقت فيها بهاء الابتسامة فوق الوجوه، فيما توارت الحكاية خلف منظر السوق العام والازدحام وكثرة رواده.

الشبكة العنكبوتية تقول إن أصل الحيّ تشكّل بعد دفن الولي الصالح، بدأ الأهالي بالتوافد، عندما أنشئت مئذنة الجامع وهي عبارة عن مكبرة صوت مربوطة على عمود خشب، جلبت الناس وبدؤوا بالتوافد وبناء مساكنه بشكل عشوائي، لكنه انتظم لاحقاً حينما كثرت البيوت.

أتذكر ذات مرة في المقهى وقد صحبني الأسطى معه بعد قيلولة المغرب، بوقت موعد الصلاة، سمعت أحدهم، كان أفندياً من طراز عثمانى خالص، بأن الحي بالأصل أنشئ كسوق لورش صناعة الحديد، في أثناء استيراده أول مرة في عقد العشرينيات وأن الإنجليز أول من عرف به وأحضره إلى الحي.

الصور متداخلة، فأنا لا أذكر أن ثمة صناعات حديدية، بل كانت صفائح رقيقة من «الفافون» لصناعة خزانات المياه، كان يحذرنا الأهالي من اللعب بها، ما دامت حادة الحواف وتسبب التسمم للجروح، خاصة أن العمال المهرة يعدون اللعب بالخزانات نوعاً من العبث بالحياة، ما داموا قد شحذوا همهم بتلك الصناعات.

التقرير في الشبكة العنكبوتية، الذي كتب عن حي قنبر علي، عدّ دخول الألومنيوم نقطة تحول كبرى في حياة السكان، حين بدأت الخزانات تصنع منه، حدث هذا بالضبط بعد حادثة غزو الكويت، لكن صناعته لم تعمر في أثناء فترة الحصار التالية، مما أدّى إلى التحول نحو البلاستيك، المادة كانت تتدفق من مصانع عبادان، أيامها جعلناها لعبتنا المفضلة، نحن الصغار، نختبئ في داخل هذه الخزانات، عندما نلعب الاستغماء.

لم يبق شيء من كل هذا، فالحي يبدو أمامي خاويًا، بيوته آيلة إلى السقوط، ثمة الكثير من الأوساخ والأنقاض التي تغلق مداخل الأزقة، أشمّ العفونة وأشعر بالقرف، لم يكن يخطر ببالي أن تستقبلني هند بالعطور والرياحين، لكن أن تكون القذارة لهذه الدرجة، فهذا مرعب حقًا.

أعاني الصعوبة في اجتياز الحارات، في الأصل ضيقة والآن القذارة تسدّ منافذها، أحجل مثل لعبة الموانع فأجتاز بعضها، بعضها الآخر أقف حائرًا بكيفية المرور من خلاله، لو أنني دخلت من جهة ساحة زبيدة فلن يختلف الأمر، إن ذلك المنفذ مفتوح على محلات خردة السيارات، كما قيل لي، فضلًا عن نقطة سيطرة الشرطة، عند بوابة مديرية الضريبة التي تمنع مرور الناس.

«أشعر بالغثيان».

توقفت، أنظر إلى المسالك فبدت مثل طلسم، لو أغمضت عيني لاستطعت الوصول إلى بيت أسطى طه بيسر، عن ظهر قلب أحفظ موقعه، بل قدماي ألفتا المكان وهما من تقودانني تلقائيًا إلى هناك، كان ذلك منذ زمن، عندما كنت يافعًا، أه.. من زمان، استنقلت الكلمة وكأنها دهر، انقطاع تام ما بين زمنين، جلست على الرصيف، أحسب عدد السنوات:

- «عمرى خمس سنوات ونصف حين جيء بي إلى هنا أول مرة، مكثت سبع سنوات إلا بضعة أشهر، ثم ثلاثة عشر عامًا في فرنسا».

الأرقام بدأت مهولة، استعصى عليّ جمعها، على حاسبة الهاتف ظهرت النتيجة بأن ثمة عمرًا قد مضى، والأيام خلقت بونًا شاسعًا بين ذلك وبين ما أنا فيه، أنا ريان ابن مزهر الشادي، القادم من باريس عبر «تمبكتو» والجالس على رصيف شارع ترابي في أحد التواءات حي قنبر علي، أفكر بالتغيرات التي طرأت، ومرور الأزمنة سريعًا.

لا أحمل حقائب سفر، لقد تركتها للرجل الأبيض، ذلك الذي ينزل نتف الثلج وشممت نداها عن بعد، في «تيمبكتو»، لقد طلبها بحجة أنه لن يدخل بغداد بردائه الفضفاض، لا بدّ له من ملابس عصرية، يستطيع التجول بحرية، دون ريب من المارة، وأنا أصلًا كنت أستنقل الحقائب والهدايا، فكانت فرصة نادرة للتخلص منها دفعة واحدة وكأني أودّ دخول الحي ثانية خفيًا، غير منقل بحوائج، كدخولي أول مرة.

فعلت ذلك بطيب خاطر نظرًا لحاجته الملحّة ولأنني طمعت بأن تكون الملابس حجة، علّه يجد في بحثه عن آلة الطرب، التي رفضت البلدية دفنها مع جنمان أبي حين قتل، لم أصدّق مع نفسي وعد الرجل الأبيض بالمجيء إلى بغداد، التي تشتعل بسياط الحر والزحام، فليس ثمة ما يغريه بهذه المغامرة، فضلًا عن خطورة ووعورة المسالك المؤدية لهذه المدينة.

لم يكن دخولي إلى الحيّ أول مرة بهذا التشويش، سلمتني أمي إلى أسطى طه في إحدى ردهات المستشفى، ثمة ضمادة على شكل صليب تطبب رأسي من الخلف، دون اليافوخ بقليل، وقبل ما تصل الرقبة، الجرح ليس عميقاً، بيد أنه قَطَب بثلاث غرز خوفاً من اتساعه في ما بعد، لو أن الصبي ظل حركاً، الأسطى ضغط بإبهامه على الجرح وتمتم بضع كلمات مع الأم، ثم قادني مسرعاً للخروج من البناية، لا أدري ما الذي حدث، لكني مثل الأعمى، أفاد بيد امرأة ثم بيد رجل.

لا أتذكر هذه التفاصيل، رويت لي في ما بعد مرات عدة وبطرق مختلفة، ليس فيها إلا الخطوط العامة للحادثة وتنقصها الأسباب والدوافع، عمري لا يؤهلني لكذا أسئلة، أنا أضمرت في داخلي، على هيئة نقلة من حضن أمّ إلى رجل، يبدو الرجل طويلاً ويداه خشنتان وشاربه بلون الحنة، لكن حتى هذه الصورة دخلت لاحقاً عليها هند فحاولت تجميل بعض من صورة الأب، فبدا مسترخياً وودوداً ويعاملني بلطف وطيبة، بما أن السنوات بمعيته خلقت جوّاً من المودة.

هند تولّت باقي المهام، التي هي الصولات والجولات والركض في الأزقة، كانت من الفتنة بحيث أتبعها أينما ذهبت، فلا تكاد تنطلق حتى أشعر بالفرح بأن ثمة فضاء واسعاً، سأجري فيه وألعب وسألفه لاحقاً.

الضمادة الطبية رفعت بعد أسبوع، عندما جرّني الأسطى إلى قبر الولي الصالح، لحظتها خرج لنا من دهاليز معتمة رجل مسن، قيل لي إنه الختان والحلاق والمضمد لكل أهل الحي، خفت شكله، الذي يداني القرد بوفرة الشعر وتفلطح الأنف، الأسطى قيدي بذراعه بقوة والآخر بسهولة نزع الضمادة، مع ضحكة مجلجلة وطلب بأن أغرد.

ظلت الأم تتراءى لي في المنام، طه الحارس الأمين الذي ينقل الأخبار، والتي في معظمها لا تتعدى كلمات محدودة:

«تسلم عليك، بعثت هذا المصروف لك».

يدسّ النقود بيدي، في المساء أمدها إلى هند، وفي الصباح التالي تعود إليه، يبتسم بوجهي ويخرج إلى العمل، إنها الدائرة التي لم تدرّ، لكني أتقنت دوري فيها، لست مشاغباً ولا عفرينياً، بل مسالم، أجنح إلى السلم والهدوء، تولّت هند وأبوها رعاية شؤوني، والتي لن تتجاوز الخطوط الحمراء التي وضعها الأب، أن لا أذكر اسمي أمام أحد، الابتعاد عن الأماكن العامة والهروب فوراً إن سمعت باسم «غضبان الحسن».

الطلاسم أمام الصبي الصغير صارت تفككها هند، حينما نكون في البيت وحدنا، تروي لي حكايات عن الجن والعفاريت ولا بدّ أن يكون أحدها اسمه غضبان الحسن، تقول إن اسمي ساحر، من يسمعه يصاب بمسّ ويظل يهذي نهارين وليلة ولن تفكّ سحره إلا عجوز تسكن أبعد من سوق حنون الكبير، أما الأماكن العامة فتعللها بانتشار موجة الدراجات النارية الجديدة والتي يمتهن رجالها سرقة الصبيان من أحضان الأمهات.

طالما فكرت بروايات هند، أتعجب من قدرتها على صوغ الحكايات بهذا الشكل الغرائبي، حين أسأل عن مقدرتها تردّ ضاحكة بأنها تتعلم من النجوم المتلألئة في السماء، بعدما تصعد إلى سطح

الدار وتبدأ مخاطبتها، قبل أن تغفو على حلم جميل.

أشعر أن سيرتي غير مقتعة، ثمّة فراغات في سردها وإن مألها بحكايات الشطار والسحرة، ما هي إلا محاولة تفسير ما لا نعرفه نحن الاثنان، هند بعمر خمس سنوات وأنا الذي يكبرها بسنة.

الرحلة باتجاه بيت الأسطى طه تحمل في طياتها إعادة تلك الحكايات ورصّها من جديد، وفق تفصيل ما جرى بالضبط، أنا العائد بعد هذه السنوات كلي تصميم لمعرفة مسيرة حياتي ومكان تواجد أمي، التي تبحث عن قبر لها.

ارتاب الأب بتصرفات البنت، واعتقد بأن ثمة تحولاً خطيراً هذا الصباح يحدث بحياة ابنته، لم يعهد فيها مثل هذا التوهان والتردد، يعرفها حازمة في أمرها، منذ تبلورت شخصيتها، إثر صناعتها للطور، عقب رحيل ريان.

أن تضع ماعوناً زائداً عن الحاجة في «صينية» الفطور، فهذا معناه إن البنت وصلت إلى مرحلة اختراع المستحيل، حضور الغائب لم يشكل بحياتها علامة فارقة، بعدما اعتادت على مرّ الأيام غياب ريان، بالنسبة لها كان ونيساً وجليس بيت، كل شيء يجري تحت ناظري الأسطى ويدرك مدى عمق العلاقة الأخوية التي ترعرعت بينهما، فلم يفترقا أبداً، فضلاً عن اشتراكهما بكثير من الأسرار الصبانية.

مرّت الأيام الأولى على غياب رفيقها بنوع من كسر خاطر والاندحار النفسي، لكنها سرعان ما تداركت أن الواقع الجديد يفرض عليها النهوض ثانية، لم يكن الأب يتدخل في شؤونها، فهو على ثقة بأن البنت سرعان ما ستتهض من كبوتها وتعتاد العيش من دونه، يحاول أن يمدّ يد المساعدة أحياناً، بيد أنه يتراجع ويعد قابليتها على التكيف كافية بأن تصحو، وستشعر بأن تلك الأيام ولّت، لا رجعة فيها، وأن الغائب ذهب، لقد حانت له الفرصة لأن يطير، يحلق مثل طائر إلى الأصقاع البعيدة.

حضور الماعون الثالث هذا الصباح، تساءل مع نفسه، أعلامة على الحنين أم عودة ثانية بدفق مضاعف لتلك المشاعر؟ استبعد كلية أن يكون لها عشيق، تخنّلي معه بعد خروجه من البيت، فالبنت لطالما رفضت الكثير من الشبان، الذين تقدموا إليها، كانت تسخر بطريقة مهذبة، بها كبرياء وعلو لمن يطرق باب البيت طالباً يدها، تلك السخرية التي صارت مضرب الأمثال بين شباب الحي، ومع ذلك لم تمنع بعضهم من التقدم لطلب يدها، هي ترى أن الأمر لم ينضج بعد ولم تتخذ قرارها بهذا الشأن، فأمامها الكثير مما تتجزه من عملها بالطور وأيّ زواج سيعوق مشاريعها ويجعلها جليسة البيت.

الأب يعلم أنها حجج واهية، بها تتملص بطريقة لبقة من القيل والقال، الذي يدور في بيوت الحي، حين واجهها ذات يوم بأبشع دعاية قبيلت في الحي، تبسّمت بهدوء ولم يرف لها جفن، في الصباح التالي لبست كفوفاً سوداء بكتلتا يديها وأشاعت بين الناس أن مفرمة اللحم أكلت أصابعها العشرة ولم تعد صالحة لأيّ مشروع زواج قادم، في البيت عندما تجلس قبالة وتخلع الكفوف تمطي أصابعها من الخدر وتضحك بطريقة محببة:

«الناس هبل وأنا شاطرة».

عندئذ تقهقه بصوت عالٍ وترقد على ظهرها، معلقة ساقها بالهواء بحركة متناوبة، تظلّ تضحك حتى تشبع، عندها تستدير نحوه:

«أنا ابنتك، لا تخف، سيأتي العريس ذات يوم».

انتظار الغائب لم يشكل في حياتها نمطاً راسخاً، فهي ابنة زمانها، ترعاه وتتكيف بسرعة مع مجرياته، تختزل عوالمها بالتخصص الذي اختارته بنفسها، المجهول والغائب والقادم كان تعليلاً لبلورة شخصيتها، جازمة تعتقد بأنه مع النجاح سيظهر من يستحق يدها، وإن الفرصة متاحة للذكريات القديمة في التبلور بتقادم الزمن.

الأسطى لا تتقصه الحنكة والدراية في ما تفعل بحياتها، بيد أنه صار شديد الغضب ويتبرم بسرعة في الآونة الأخيرة، بالضبط منذ أن تمّ تهديم «دار المخطوطات» في باب المعظم، اعتبر ذلك نذير شؤم لمرحلة قادمة من الخراب، كانت واجهة هذه الدار تشكل علامة بارزة على إتقانه للعمل وشاهدًا حيًّا على مرحلة ازدهار العمران في الفترة الماضية.

طه أشطر أسطى في بغداد، إنه واحد من أمهر خمسة عمال بناء الواجهات والعمران، اشتهر بالذات في إجادته التعامل بشكل خاص مع «الكاشي» الأزرق والمنقوش بكتابات الأقدمين، بعض الأحيان تبعت بلدية المدينة في أثره للاستشارة بهذا الأمر أو ذلك، حين يريدون تزيين واجهة إحدى البنايات القديمة، خاصة إذا أحييت المناقصة إلى شركة أجنبية، إذ تنتدبه البلدية ليكون مشرفاً ومرقباً للعمل، فهو قد خبر بحياته النقوش وطريقة التزيين بها، بالذات في البنايات والدوائر العامة.

لم يكن يعاني الكساد في عمله، فبغداد كلها مساحة تراثية، تحتاج لإعادة ترميمها مجدداً، يخرج صباحاً ولا يعود إلا بعد مغيب الشمس وقد هدّه التعب، بنظرة فاحصة يدرك ما جرى للصبيين في أثناء غيابه، مطمئناً من حكمة البنت وهدوء الولد، ثمة أمور يغض الطرف عنها ويعدها مؤقتة وسرعان ما ستزول حين يكبران، يوقن أن البيت بغيابه يملؤه الضجيج والتناوب على الرقص وإن من الحكمة أن يفرغ الصبيان طاقتهم بمثل هذه الأفعال.

حين يشتهي مشاركتها، بالذات في ليلة الخميس، يدعوها من طرف خفي بإحياء حفلة مرح، يشاركتها بما يتذكر من إيفاعات أغاني سليمة مراد وعفيفة إسكندر ورضا علي، لكنه يطرب ويترنح إن ضبط أحد الصبيين أغاني ناظم الغزالي، فقد كان شديد الحرص على سماع الأغاني المميزة والمحبية لنفسه.

يدرك الآن أن البنت قد عوضت الكثير من مصروف البيت، بعدما توقف عمله وازدادت مبيعات العطور، لم يبادر مرة ليسألها إن كانت قد أجادت صناعة العطر بشكل جيد أم ما زالت هاوية، هو يرى تهافت النساء الأنبيقات والمرصعات بالحلي والذهب على طرق الباب وطلب مقابلة البنت للشراء، أمر طبيعي، بعدما فاقت سمعة البنت كل الأرجاء وجاءها الزبائن من أنحاء شتى من العاصمة، امرأة سميحة وذات طفح عافية غير مبرر بخدودها، أخبرته، ذات مرة، عند الباب:

«أصابع ابنتك أمهر من صنعت العطور في بغداد كلها».

ما الذي حدث إذن ليرتاب في ابنته هذا الصباح؟! نفص رأسه من وسواس أسود، اتخذ من عتبة الباب الخارجية مقعداً، تدارك ما يعتريه بأن تبسم لخطر، مرّ بسرعة أمامه:

«لعل أحد النجوم هبط من السماء على سطح الدار وسيحلّ ضيفاً علينا».

طالع الزقاق الممتد أمام ناظره ثم قرر عدم الذهاب اليوم للبحث عن العمل، سينتظر مجيء النجم هذا الصباح، ضغط على صدغيه وأزاح أيّ خاطر يعكر صفاء الذهن، الذي انجلي منذ قليل، لا يفكر بشيء محدد، فقط الانتظار عما سينجلي هذا الصباح.

انتابه إحساس بأن ثمة شيئاً سيحدث هذا الصباح، فغير معقول أن يمرّ برتابة ولا تقع الأحداث، لا بدّ أن تتغير حياتهما تبعاً لذلك، لن يمرّ الوقت سدى، دون إدراك بأن البنت تنتظر، دلالة على وقوع حدث، لا اعتباطاً بسلوكها، هي خبّأت ولم تصرح، بيد أنه جلي في تصرفها.

حرّك وركه قليلاً ليفسح مجالاً لمن طلب الجلوس بجواره على «الدكة»، لم يرفع رأسه ولم يسأل عن هذا الجار، الذي يريد مشاركته الجلوس على عتبة الباب، هذا الصباح.  
«هل كنت تنتظر؟».

«لا، أبداً، يا جاكوبيان، كنت أنتظر هبوط النجوم في هذا الصباح».

كأنهما لم يفترقا ثلاث عشرة سنة، كأنهما كانا يتسامران الليلة الماضية، الشاب يلتفت صوب الأسطى:

«من هو جاكوبيان؟».

«أنت».

فغر فاه مندهشاً، اقتنع لحظتها أن بوادر رحلته قد هلت، وأن استقبال أسطى طه له بهذه الطريقة يعني أن ماضيه بهذا البيت لم يندثر وما زال طرياً، يعيش بين جنبات أهله، لا بدّ أن الحفاوة بقدمه ستكون كبيرة وبمستوى المشاعر الجياشة، التي تأخذ بخناق الناس، حين يلتقون ثانية بعد فراق قسري، تغلّ بذلك، بيد أنه تحامل على نفسه ولم يقم عن «الدكة» لمعانقة الأسطى، اجتاحه هذا الشعور بلحظة، لكن أرجأه إلى وقت آخر، ربما سيكون العناق أكثر حرارة.

باتجاه الولي الصالح نسير معًا، جنبًا إلى جنب.

«أنت تريد قبرًا لأملك....».

سكت، حبس أنفاسه، نحوي يستدير.

«أنا عاطل عن العمل..».

كمن تذكر شيئًا، عاد صدره يهبط ويصعد.

«وأريد إعادة أمجادي في العمارة والبناء».

أخرج زفيرًا، كمن يطرد طائرًا عن باله.

«لدي فكرة مجنونة، تعال أرك إياها».

هذا الرجل الذي يكتم أمره ولا يبوح به، يرمي أسرارَه في هوة بئر عميقة وينساها، كأنها لم تكن، استغرب لهفته على تتبع خطاي وأنا أخبره عن سبب عودتي، انتابه الشك بما سمع، لكنه سرعان ما طبطب على كتفي مرددًا:

«حسنًا.. حسنًا.. سنفعل».

لا أعرف ما الذي يرمي إليه بخروجه هذا اليوم وإصراره على مصاحبتني، أنا اعتدت سابقًا وأمره، لكن ليس بهذه اللجاجة.

أدرك التغير الذي طرأ في حياته، من خلال المشي يبدو يحجل، يرمي ثقله، مرة إلى اليمين وأخرى نحو الساق اليسرى، لا شيء يعيب المشية، بيد أنها تبدو غير متزنة، شعره الأشيب، بالذات عند الفودين، يخفي توتر صدغ غير مرئي، ما يعانيه هذا الرجل وما حل مؤخرًا يدل على أحداث جسام قد مرت.

حاولت أن أتخلف خطوة، بعدما رأيت يده اليمنى ترسم مخططًا في الهواء، واليسرى تحصي أرقامًا كبيرة، يرافقهما بحركة مبهمّة في الشفة السفلى، كأنه يقوم بمراجعة شاملة للفكرة التي انتابته والتي حتمًا سينضجها، حالما نصل إلى المكان.

«قل شيئًا، إن اعمار الذات تعب متواصل».

لم يستمع إليّ، في الحقيقة هو ليس شارد الذهن، فالرجل ما زال صلدًا ولم تحنيه رياح الأيام، ربما أنا قلت جملي همسًا أو ربما لا يدري أن ثمة مرافقًا له بالمسير، تباطأت حركة اليدين، مما حدا بي الظن أن الفكرة قد اختمرت.

كنا على وشك الوصول إلى مرقد الولي الصالح في الجزء الشمالي من الحي، الذي يفضي إلى ساحة زبيدة، الناس تعد ذلك المكان مقدسًا في ما مضى، لكني الآن أرى بعض الصبية قد تبولوا

على الحائط ومجراه لحظة انحداره إلى الأسفل لم يرسم شكلاً مميزاً، لكنه ترك أثراً، كما الحيطان قد تأكلت.

الدورة الكاملة من الدوران عبر الأزقة وصولاً إلى باب المرقد جعلنا نستدير إلى الشرق ثم ننعطف جنوباً أو غرباً، يقال إن موضع الباب في المرقد لم يثبت في مكانه، ففي كل مرة، بين حين من الدهر وآخر، تجده الناس وقد غير موضعه، هو الآن في الطرف الجنوبي الغربي من صحن المرقد.

لم أكن متلهفاً لما سيطرته أسطى طه من أفكار بخصوص القبر، فأنا أعرف أن الرجل كان يطرح أفكاراً عدة، يتركها سائبة وفي اليوم التالي يعود فقط إلى تلك التي نضجت، دون سواها، ما قاله عن فكرة مجنونة لم يرق لي ولم أخذه على محمل الجد، باعتباري قد تعودت طريقة تفكيره سابقاً، ضمن هذا الإطار لم أحسب مدى التغير الذي حدث له، حتى تقاجأت بالفكرة التي كان يحصيها على أصابعه، في أثناء مشينا باتجاه المرقد.

«انظر... تمعن، ماذا ترى؟».

«قبر الولي الصالح وبجواره قبر اليهودي ذي الثعبان».

«يا بني، صحح معلومتك، اليهودي لا يمتلك ثعباناً، إنما وفد إلى القبر لاحقاً وتوطن فيه، بعضهم أشاع الخبر كي لا تنتهك حرمة اليهودي المسكين».

أحط بين كفي دماغي قليلاً، لم أسمع بهذه الحكاية من قبل، وكنت أظن أن الثعبان من ممتلكات اليهودي حين مات.

«انظر إلى تلك الحافة، بجوار القبرين».

أتمشى نحو ما أشار، ثمة فسحة ضيقة تحاذي حافة القبر الثاني، قبلما تطلّ على مساحة الشارع الضيق، المؤدي إلى الخروج من الحي، وقفت متسماً، أنتظر توضيح فكرته، دنا لحد الالتصاق وكأنه يخاف البوح:

«اسمعي جيداً وأغلق فمك بعدها».

لم أعود الغلظة في كلماته، لكن عظم ما يعتمل بداخله يجعله حريصاً جداً.

«الفوضى تضرب أطنابها في البلاد والعباد، إياك والثرثرة حتى ننفذ المشروع».

هنا بدت جديته واضحة، ارتسمت على ملامحه.

«الفسحة بعرض متر ونصف، تكفي قبراً، أمك ليست سمينية، حالما ترقص.....».

أعرف مقدار شغفه حالما يتحدث عن الراقصة «يارا»، هذه المرة بتر كلامه، أردف مسرعاً:

«الفسحة من ناحية الطول تداني أربعة أمتار، مما يعني أن تمتد أمك بطول قامتها الرشيقة... وتبقى لدينا مساحة زائدة».

أتابعه باهتمام محاولاً تصور أبعاد المكان وملاءمته ليكون قبراً.

«الزائد من المكان سيكون سلماً حلزونياً، يصعد إلى الأعلى، فوق القبور الثلاثة سنبنني بيتاً من زجاج، يصعد الزوار إليه ويصرون القبور أسفلهم.... نستطيع تطوير الفكرة بأن نجعله معلماً سياحياً، يعني كما يقال «زيارة وتسيارة»».

لست مندهشاً من الفكرة لكني مصعوق من هولها، تكاد تقترب من الجنون، ناتجة من مخيلة، تعالت على الواقع وحلقت كلياً، من الهول، الذي جمّد مفاصلي، أجلس على الأرض فاتحاً فمي.

«سيكون البيت الزجاجي العلوي مقرّاً لأمك، وحالما تموت ندفنها في الأسفل، بجوار القبرين».

«ماذا؟».

«هكذا نضمن مقبرة نموذجية، فيها أجناس مختلفة، وليّ صالح ويهودي بثعبان و«يارا» المسيحية».

«ماذا؟».

«أصابك البله، لن تفهم الآن، في ما بعد ستعرف».

يبدو أن في مخيلة الرجل مخططاً كاملاً عما ينوي فعله لحل إشكال قائم، هو في الحقيقة مضحك جداً، أن تجهز قبراً لأمّ لم تمت، لكن الرجل يرمي باتجاه فكرة أخرى، أكثر نضجاً، يعرف تفاصيلها ولا يقولها، وتعد بديهية بالنسبة له، في حالتي ليس لي إلا أن أضحك على رجل، يبني معلماً سياحياً فوق قبور الموتى، ليضمن بناء مقبرة نموذجية، تضم كل الأطياف.

يبدو ريان رجلاً عملياً، بدون إحساس، يتعامل مع العالم بنوع من الحيادية، التي تجعله غير منغمس، ثمة برودة جلية بنظرته تجاه ما يطرح أمامه وأن لا علاقة تربطه مع هذا العالم، إلا بمقدار التعامل الآلي، من الصعوبة بمكان تقبل هذا الواقع أو أن ترضى ببقاء الشاب هكذا.

تشعر هند بمهامها الجديدة والتي ستتحمّل تبعيتها بما ستجرّ من تعب وإرهاق، بإعادته إلى جادة التفاعل، تلك التي كانا عليها، الألفة المحببة إلى النفوس وطريقة التعاطي مع الناس، بروده يقتلها ويشنت نفسيته ويجعلها حائرة بكيفية التصرف إزاء أفعاله، أحياناً تتخيل أنها تتعامل مع آلة مجردة لا تمتلك الحس أو التفاعل.

بنظرة فاحصة ومتبصرة أدركت ذلك، خلال الأيام التالية لوصوله، حقاً فاتتها حرارة اللقاء المرتقب، عندما قاده الأب داخلاً ببساطة إلى البيت وكأنه حدث عادي من الروتين اليومي الذي يكتنف الحياة، لم يدرك مقدار اللهفة والشوق بانتظار مجيئه ووصوله، هي كانت تعد «صينية» الفطور، ذات ثلاثة مواعين، لقد انطفأ فيها شيء لحظتها، كانت تحسبه مهمماً وصبرت عليه سنوات طوالاً، شيء يشبه جذوة اتقاد، الأب ببراءة، كمن سكب الماء على ذلك الاتقاد وأحال الجذوة رماداً.

كلها عزم أن تبادر إلى فعل خلاق، يعيد المياه إلى مجاريها، يشعل فيها الرغبة بأن ترى ريان ثانية، ابن السنوات الست، يتألف مع محتويات البيت وعالمها، بما فيه من عفوية وحميمية، الليالي الماضية أمضتها بالتحضير لفكرتها، جذبه لأن يكون جزءاً من الطقس الذي تحضّر له، لم تقتها أبداً رغبة ريان بعدّ النجوم واختراع أبراج ودروب لها، فبنت فكرتها على محورية سطح الدار، المكان الذي كانا يقضيان الليل فيه للسمر.

عصر اليوم الثالث، حالما أبصرت الأب وريان يخرجان باتجاه قبر الولي الصالح، بدأت استعداداتها، علقت فستانها بطرف السروال الداخلي وشمرت عن ذراعين بضّتين وحملت المقشّة ودلو الماء صاعدة السلم، بضع درجات نحو اليسار وبضعاً نحو اليمين حتى يفتح السطح بسعته أمامها أجرد، بعض من الغبار وأوراق من شباب الحي متطايرة، تحمل غزلاً وأبيات شعر، تشعرها بالقرف، لكنها تضحك لمثابرتهم العتيدة، التي لا تنقطع أبداً، حتى اعتادتها كطقس يومي، فوق السطح أو معلقة في شباك الغرفة المطلة على انحناء الشارع.

من دون أن تقرأ لمت الأوراق وبعضاً من الشجر اليابس وباشرت الكنس، انحنأوا نحو الأرضية يجعل من سمانة الساقين بطنين تتأهبان للقفز، أما صدرها مفتوح الأزرار فيرتجّ مع كل حركة، يطربها اهتزازة وكأنه مرجوحة، تذهب وتعود بانتظام.

لم تفكر من قبل أن تتطلع إلى مفاتها، فهي ترى جسدها ينمو بشكل متسق، بالذات بعدما فاجأتها الدورة، أول مرة، وهي برفقة ريان في إحدى الحافلات، التي تقلّهما إلى الباب المعظم، فاحت من أفخاذها رائحة مميزة، شعرت بالبلبل لكنها غضت الطرف عما يحدث وانتبهت إلى الرائحة، الشذا الذي لم تعرفه من قبل والذي أخذ بحواسها وجعلها مخدرة طوال الطريق وقد انقطعت كلياً عما حولها، في لحظة نادرة من شرودها سألت رفيقها:

«ريان، ما شكل رائحتك؟».

«رائحة التراب».

تلك الكلمة التي ستكون محور حياتها القادمة، بكل أبعادها وتفصيلها، بما خلفته بداخلها من أثر، أخذ بمجمل حياتها وسيرها مسكونة بمعادلة، طرفاها التراب ورائحة ريان.

غنت منتعشة بالخلوة في السطح واهتزاز رمانتي صدرها، كلمات الأغنية تنساب هادئة مع حركة يدها، حين يعلو النغم ينتصب جذعها فترى حجارة السطح، تردد معها فرحتها باللقاء المرتقب هذه الليلة.

في ما مضى، حين يخيم الليل وهما على سطح الدار، فرشتان بجوار بعض، ودائماً يتخذ الجانب اليميني، ينظران في الفضاء، تبدأ النجوم تبرق لهما، فيرسمان بين مواقعها مسارات، أحياناً متعرجة وأحياناً مستقيمة، يدعيان أن النجوم تحصى بهذه الطريقة، هي تخبره أن بعض النجوم تهبط على كف يدها، ترقص أو تضحك، لكنها في النهاية تترك أثراً في الراحة، تشعر أن ذلك الأثر يتشكل على هيئة كلمات.

النجوم تخبرها أنه من السهولة بمكان التجول في الفضاء وسماع الأصوات فيه، ثمة أغانٍ وأوردة ذكر وإحياء لحفلات رقص ومسرات، تنبئ عن الفرح الكامن خلف ظلام الليل، وأن هذا العالم يمكن ولوجه، فيما لو نظرت بإمعان في بريق الضياء المنتشر والمتواري، تستطيع أن تطلب أي نجم ليحضر لها ما تشاء من الأمنيات التي تبعث السعادة في قلبها، هي غالباً ما كانت تتوانى في طلباتها، إذ ترى في ذلك نوعاً من الأنانية، أنانية أن تنزل النجوم لتلبي طلبها، بما يختمر في قلبها.

انتظمت، بمرور الليالي، مع النجوم بعلاقة من نوع خاص، تبت في الساعة الأولى من صعودها إلى السطح ما تريده أو ما يعيش في قلبها من رغبات، غير قابلة للتحقيق، في الساعة التالية تبدأ رحلتها مع حركة النجوم وبريقها، تسافر إلى فضاءات وأمكنة، لا تعرفها ولم تخطر في بالها، حين تتعب من طول الرحلة تركز إلى النزول، تحملها النجوم مثل أميرة في محفة من ضياء.

تغير رقدتها بأن تضع يدها فوق الوسادة وتحت رأسها، صانعة نشوة الاكتفاء والشبع، ما إن تصحو صباحاً حتى تجد أمانيتها مطرزة ومنضدة بجوارها وقد علقن كطوق الياسمين، مرات الطوق يكون طويلاً وفي بعض الأحيان قصيراً، علامة على طول الرحلة بين النجوم، تتفحص حبات الياسمين وتفرط في الفرح بأن حياتها سعيدة وإن رغباتها قاب قوسين أو أدنى من حيز التحقيق.

بعدما غاب ريان سنوات جعلت أمنية ثابتة لها في كل ليلة، وتتخذ حبة الياسمين الكبرى في أول الطوق، أن ترعاه النجوم، الإجابة التي تجدها في كل صباح: إن الشاب يتجول في أزقة مدينة جميلة ونظيفة، عند ذلك تنتظر إلى باقي الأماني، الأقل أهمية، والتي ستعيش وقائعها كل يوم في أحياء قنبر علي.

ترى اليوم أنها أقرب قطافاً، وسرعان ما تسري في جسدها الرغبات بتحقيق تلك الأمنيات التي

ظلت تراودها، والتي كانت تحلم بأن تدانيها، الحلم الكبير الآن قد تحقق، ريان في البيت، وما عليها إلا أن تجذبه إلى أفلاكها، تلك التي تسيرها النجوم وترحل بها كل ليلة.

اعتادت هند ركوب الحافلة باتجاه الباب المعظم، الرحلة في صباح اليوم التالي، برفقة ريان، ستكون ذات شجن، تحمل في عبقها سنوات الصبا الجميل، حينما يسرحان نهارين من الأسبوع في أزقة بغداد، بالقرب من النهر أو عمقاً في الأسواق القديمة، والتي غالباً ما تنتهي بتشديد حرص الأب، على عدم اكتشاف أمر الفتى.

ترتسم في ذهنها لحظة شديدة الانخراط، دون غيرها، عندما حلت في الحافلة رائحة ريان بها، بلحظتها تضحخت بعطره، حتى صيرتها أسيرة تلك الرائحة طيلة حياتها، خاصة أنها قد وقعت قبل أشهر قليلة من مغادرته البيت نهائياً، بمعية أسطى طه ليختبئ هناك، في المطار.

عدم وجوده بحياتها جعل تلك الرائحة تتشكل كغيمة، تظل الآتي من حياتها والتي جعلتها تغلق أنفها عن بقية الروائح مقارنة، ثم شغلها فترة للبحث في أجساد المارين في الطرقات والأسواق عن ذلك الشذا، أخيراً اقتنعت بأن تصنيعها أفضل من ضياعها.

تعرف، كما أخبرها ريان ذات مرة، أنها تشبه التراب فطلبت منه تعلمها، ربما اخترع حكاية طريفة، طريقة تحضير التراب وصناعة الروائح منه، لقد حاولت جاهدة تتبع تلك الطريقة، لكنها لم تقلح أو ربما الطريقة ذاتها غير قابلة للتصنيع، بيد أنها لم تتوان في البحث عما يوصلها لصناعة العطر الذي تريد.

اهتدت إلى سطح الدار وحكايات النجوم التي تهبط من عليائها وتبلل حلمتي نهدبها في البداية، ثم تحولت إلى طوق الياسمين عن الأحلام الجميلة، في لحظة حاسمة من تحليق مخيلتها فكرت بأن تذهب في اليوم التالي إلى حافة النهر وتجلب الطين الحري وتجرب خلطه بحبات الياسمين، مع ندى حلمتها، في قدر بخار.

أول قارورة جمعتها كانت مزيجاً من روائح مختلطة، غير مميزة، في الأيام التالية غيرت من النسب وزمن التبخير ودرجة التكتيف ومرحلة تحول الخليط إلى سائل، عندها أدركت أنها اهتدت أخيراً إلى رائحتها المفضلة، تلك التي قطعت بها شوطاً يعادل ستة أشهر، بعد غياب ريان.

حين شمّ طه الأسطى أول إنتاجها، قال بحدة:

«أنا أسعى إلى تفسيره وأنت تحضريه عنوة إلى هنا».

لكنه ضحك، بعدما انتشى من العطر وقد حرّمه على نفسه بأغلظ الأيمان، لم تعترض البنّت بسبب قسمه الشديد، والذي يعد قراراً لا رجعة فيه إطلاقاً.

قبل الترحل، صباح هذا اليوم، من الحافلة، كانت لصقة تجلس على كرسي مشترك، سألتها إن كانت قد جلبت عينات من العطور، لم يسمع الجواب، إذ نزل مسرعاً وهي ما زالت مخدرة من دواء التصاق، أخبرها وهما يعبران الشارع نحو شركة البريد السريع أنه ينوي إرسال العينات إلى صديق في باريس، يحلم بالشرق كثيراً ويتمنى كتابة رواية عنه ويعد وصول الروائح بمنزلة حافزاً

للبدء بتنفيذ ذاك المشروع.

«من هو؟».

كأي سؤال أبله لا معنى له سألت، مشاركة في مواصلة الحديث.

«اسمه كونديرا، من أصل تشيكي، استطاع تجاوز الجمود والانفتاح مع الموجة الجديدة، بعدما ارتحل إلى الغرب».

لم يكن مقتنعًا بما قال، ظن أن إشباع فضولها هو المهم، في داخله ما زال غاضبًا على المؤلف الذي لا يعرف كتابة رواية بسبب تاريخ الميلاد، برغم ذلك توطدت بينهما الصلة وزادت بمقدار لقائهما الأسبوعي في مقهى دي بوفار، مقهى الأدباء والفنانين المشهورين.

خرجا من بوابة البريد السريع، استدار بأكثر من اتجاه وكأنه فقد البوصلة، قادتته من يده نحو الأماكن المظلمة للأسواق القديمة، هند تحفظ منحنيات هذه الحارات عن ظهر قلب، مرورها خلال السنوات الماضية كان محاولة لإعادة الصور وعدم طمسها في ركام الأحداث المتسارعة، الجارية بين البشر.

«كيف روجت بضاعتك؟».

لم يكن يسأل بجدية باحث ينتظر أجوبة محددة، حاولت في الوهلة الأولى تخطي سؤاله بعدم الانتباه، ظل متسمراً في مكانه ولم يبدأ خطوته التالية إلا مع انطلاق حديثها، أدركت لحظتها مقدار التغيير الذي طرأ عليه.

«صرت متسولة».

جملة رنانة، ذات إيقاع عالٍ من الانفعال وشحنة من ذكريات أليمة، لم يشعر بوهج الكلمات، بل عدّها مدخلاً لمعلومات تفصيلية قادمة، سيتابعها باهتمام وحرص.

هند اعتقدت بأن عدم دق ناقوس الجملة في دماغه سوف يدفعها حتمًا إلى روي مرحلة تحاول نسيانها، وطبها بعدم ذكرها أمام الآخرين.

«سأضطر، إذن، أن أحدثك عن الوجه الآخر للمدينة..».

توقفت، لعل الجملة الجديدة سيرن جرسها بقوة، ريان بكل برود ردّ تلقائياً:

«أستمع لك».

لم يبقَ أمامها وقد غلب حصانها إلا أن تدخل معترك تلك السنوات، أيام كانت تتوجه ليلاً، بالضبط بعدما يحل الظلام في شارع أبي نؤاس وجسر الجادرية، هنالك كانت تركن السيارات الفارهة الجديدة، ركابها من المدراء الإداريين وأبناء الوزراء والمرافقين الأمنيين وبقية الشلة.

تدور عليهم، تطرق زجاج السيارة فيظنون أنها متسولة، بعضهم يطردها وآخرون يتحرشون وجماعة أخرى تشتمها، قبل مغادرة أيّ من هذه المجاميع ترش موجة خفيفة من العطر وتنسحب،

تراهم يفتحون الأبواب ويركضون خلفها، يطلبون ودّها، عندها تعرض بضاعتها بأعلى الأثمان. أحياناً تتجح وأحياناً لا تحصل إلا على الضرب، فهم غلاظ، غير متمدنين وفيهم جلفة بما تعادل رعاة الإبل في صحارى قفار، بإصرارها وتغيّر موقعها أدركت الوجه الآخر لبغداد، أماكن الدعارة والعشيقات وزنى الطرقات، ومواخير المومسات وحثالة المدن وأبناء اللقطاء الذين أثروا بسرعة.

«بهذه الطريقة روّجت في البدايات عطوري، كما تعرف الساسة يغارون من الساسة، الأصدقاء والرؤساء يثرثرون أمام زوجاتهم وعشيقاتهم، والجار يوصل إلى سابع جار، فضلاً عن المجتمع الناعم، المتواري عن الأنظار، صار لديّ جمهرة واسعة من المشترين».

ريان فاغرٌ فاه، مستغرباً تدفق المعلومات بهذا الكم الهائل، الواقع الذي لم يره ولم يسمع عنه، برغم وفرة المعلومات المتاحة.

«ما تقولينه يعتبر تقريراً مفصلاً، يعدّه خبراء ويُقرأ في أروقة الأمم المتحدة».

لم يكن يعنيتها الأمر إلا بمقدار رغبة ريان بالاستيضاح من بعض التفاصيل، التي كان يطرحها على هيئة أسئلة قصيرة، عن هذه أو تلك من المعلومات التي روتها له بعفوية وطيب خاطر.

رحلة النهار توشك على الختام، بعدما قادتتهما إلى سوق «الروافين» وشارع النهر وصاغة المجوهرات الثمينة وانتهيا، من حيث لا يدريان، بساحة حافظ القاضي، ريان ينوي العودة إلى البيت، شعرت بهذا حين عاود التلفت بالاتجاهات الأربعة ثانية.

ثمة بائع فلافل، يشغل ركناً من الساحة، ويجلس زبائنه على تخوت خشبية سيئة الصنع، يتجمهر حوله حاملو الشورجة، حاملو الشهادات العليا الذين لم يجدوا فرصة عمل غير دفع عربات حمل، استهجنّت هند الجلوس بقارعة الطريق، لكن ريان من دون اكتراث سحبها من يدها وأجلسها على كرسي منفرد ومربوط بشدة حبال، تقوي من بقائه قيد الاستعمال عنوة.

ما إن جلست حتى انبرى بسؤال يشبه الهمس وقد أدنى بوزه قريباً، لم يعر صيحات الاستهجان بالأل.

«شكو عليك، إيدك بالدهن.... رمانة وحبها مستوي».

هند تدرك الدلالة الضامرة في صيحات الشباب، نشرت بسمة حلوة على محياها، فتراجع الشباب إلى أكل وجباتهم السريعة، تاركين الشابين لحالهما يتهامسان.

«ماذا قلت؟».

تسأله، بعدما صرفت فضول الشباب بتلك الابتسامة.

«ماذا تعرفين عن عائلتي؟».

«لا شيء محدد».

من الصعب التنقل من الغزل الفاحش إلى الذكريات الأليمة، برغم إدراكها أهمية الموضوع بالنسبة لرفيقها، حاولت أن تقول عبارة عامة، لكنها شعرت بمقدار خيبة الأمل التي ستولد بداخله، اقتربت منه، وقبل أن تمسك يده نظرت صوب أكلة الفلافل، كأنها تطلب الإذن، هؤلاء مثل المنحدرين من عذوبة الفتاة ولوا وجوههم صوب جسر الأحرار الشاهق من طرف الساحة.

«أنت تعرف، كم أبي كتوم، يودع أسراره في بئر بلا قرار ويطمرها هناك».

تتوقف، تحقق في عينيه مباشرة.

«أعرف أن النقود قد انقطعت، بمجرد أن خبأك الأسطى في المطار، كان يظن أنك ستكون في مأمن، ما دام الأمريكان قد خيموا هناك، عند أول نزولهم في بغداد، هو أكثر من غيره يستقرئ الوقائع، قال لي في وقتها إن غضبان الحسن سيلبس العمامة في الزمن الجديد».

توقفت ثانية عن عمد، تتيح فرصة أن يستجمع الصور القديمة، تراها تطوف في وجهه، راکضة صوب الحمامات في مطار بغداد.

«عادت النقود تتدفق من جديد، بعد سنتين رفض أبي استلام أيّ مبالغ من عائلتك».

كمن أزاح حملاً عن أكتافه، استرخت مع جملتها الأخيرة:

«صدقني، أنا لا أعرف، لم توقفت النقود ثم عادت؟ التفاصيل في بئر أبي العميق».

حكاية تقضي إلى حكاية، فكان لا بدّ من أن تطلّ برأسها حكاية أمي، عاجلاً أو آجلاً، هي الخميرة التي انطلقت منها بقية الحكايات وتشعبت، ربما لا أحد يعرف المسارات التي سلكتها الأحداث، لكن التشظي أدّى إلى تلك النتائج التي وصلنا إليها.

أمي لم تكن محور حكاية بحدّ ذاتها، وإن اختطت لها سيرة خاصة، بيد أنها نتجت من مرويات قديمة، موعلة بالتاريخ وما زالت تتفاعل، مثل جمرة تحت رماد، تتوهج وتطلق شرارتها كل حين، كما في الألعاب النارية.

لا أحد يعي البدايات الحقيقية لمسيرة أسرتي، في تاريخها الأقرب انطلقت من فكرة مجنونة، لرجل كان يشاهد التلفاز في منتصف عقد الخمسينيات، في إحدى قرى أرمينيا.

هذه الحكاية حين تروى، لا أحد يأخذها على محمل الجد، فمن يصدق أن فلاحاً جائعاً ماتت خرافه في شتاء ذلك العام قرر الادّعاء أن نسبه يعود إلى بغداد وأن عليه الهجرة إلى هناك.

أكد ثمة حمى أصابت الرجل بسبب أوضاع الصقيع، فترأى له على شاشة التلفاز أن الوزير الذي يلقي كلمته من على منبر الأمم المتحدة، يشبه أفراد عائلته ولا بدّ من صلة نسب تربط بينهما.

الفكرة بنت لحظتها، لم يحاور الرجل أيّاً من أبناء عمومته في ما سيفعل، بل اتخذ القرار بما يخص أسرته المباشرة، هو أصلاً برغم قناعته بأن ثمة إشكالات في أصل النسب، لن يتخذ التهور وسيلة ولن يدفعه للشروع في تنفيذ الفكرة، فبغداد تبعد آلاف الأميال، فضلاً عن أن اسم المدينة لم يرسخ في ذهنه، ففي كل مرة من الأيام التالية يلفظها بطريقة مختلفة وإن أعياه اللسان يردف: مدينة ألف ليلة وليلة.

حين طلب من العائلة شدّ الأمتعة والتهيؤ للرحيل، اجتمعت القرية عنده، يثنون الرجل عن اللوثة الطارئة التي أصابته، أبناء عمومته قالوا:

«إذا كان لك أقرباء في بغداد فنحن أيضاً، لكننا باقون هنا».

هم يلمحون إلى شجرة العائلة التي بحوزتهم والتي ظلّ ينازعهم إياها من الصباح، كان يصرّ على حملها، فهي التي تثبت أصله وفصله أمام قوم بغداد، الأعمام وبعدهما شهر سلاحه وعدوه بأن ينسخوا رقعة مشابهة خلال أيام، فارتضى السكوت.

العائلة المكوّنة من بنات ثلاث و غلام يافع وزوجة طيبة صدقت أن جذورها هناك وهناك ستفتح أمامها أبواب الجنة، فالمدينة التي يُحكى أنها في القصص تشعّ بالنور والحكمة وأن أهلها من التمدن بحيث يرحبون بالضيف، فكيف بهم وهم العائدون إلى الديار، بعد ثلاثة عشر قرناً، من الفراق، في ذرى أرمينيا، العائلة سألت عن الشخص الذي رآه في التلفاز والذي لمح فيه الشبه، كيف سيصله؟ كان يجيب:

«حالمنا نصل سيعود هو، كان يلقي كلمة بلاده، اسمه فاضل الجمالي ويشغل وزيراً للخارجية، فلا

بدَّ أنه شخصية معروفة ومهمة».

«كيف توسمت فيه صلة القرابة؟».

«لا أدري، عندما نطق تفتحت أسارير قلبي وعقلي، أخذني إلى أزقة بغداد وتصورت أننا من النطفة نفسها....».

«كيف؟».

«لا أدري.... قلت لكم مرارًا أن أصلنا من هناك».

سكتوا، بل افتعلوا الخرس مخافة إعادة السيرة إياها، التي طالما ردها في كل المجالس، لقد حفظها الناس، أهل بيته يتجنبون الخوض فيها، لكنهم أمام الآخرين يدافعون بقوة عن فكرة الأب ويعدونها من المسلّمات البديهية في حياتهم اليومية.

الحكاية لا تتكر الناس أصلها، بيد أنها بالية ولا يمكن حين تمحيصها تثبت بعد مرور ثلاثة عشر قرناً على حدوثها، إنها شائعة إلى حدّ أن تحاول الناس طيّ صفحاتها لقدمها ولم تعد جذابة لتكرارها.

تذكر كتبهم ومخطوطاتهم، التي ظل يحفظها سرّاً الكبار، عدة صفحات مدونة بخط كوفي منمق كانت بحوزة الشيوخ، حتى داهمهم الغرق ذات شتاء فمسحت الكتابات، بقيت شجرة العائلة على هيئة رسم بخطوط متداخلة، الأحرف سالت ولطخت بقية فراغ ورق البردي الذي كتبت فيه:

«من أبي جهم، عثمان الطويل، اعتراف صريح بأن الصبي الذي..... أمه سارة وأنا أبوه....».

ما يؤكد أصالة الوثيقة أن أبا جهم هذا له مسجد بطرف العاصمة يريفان ما زال عامراً، بل بعض الناس تشيع أن الجامع، طوال هذه المدة، كان يتجدد من تلقاء ذاته، كل أربع سنوات يصبح بأبهي صورة، يقولون إن رسلاً غير مرئية تقوم بتعميره والناس نيام.

حكاية الجامع تؤكد وجود الشخص الذي بقي بين ظهرانيهم أربع سنوات، حين أوفده الداعية واصل بن عطاء، صاحب المنزلة بين المنزلتين، لكنه اضطر للعودة سريعاً، بعدما طلبه الخليفة المأمون، بليلة سفره كتب العهد وتبنى أبوية الجنين الذي في بطن أمه، بعدما واقعها في سريره سبعة أشهر، الزوجة من ديارهم، أرمنية جميلة هي التي أغرمت بالرجل وظلت تطارده، حين وقع في غرامها كتب وثيقة الزواج بيده، لم يسلمها لأحد، بل حملها إلى بغداد، في وقت متأخر علموا أن عقد الزواج أودع في بيت الحكمة الذي بناه المأمون.

بعد ثلاثة عشر قرناً لا أحد يستطيع إحصاء ذرية ذلك الجنين، الناس تتداول الحكاية بنوع من الدعابة، خاصة عندما يكون أحد الحضور يحمل لقب ريان، أو جهم-ريان، حدث الانشقاق ما بين الطرفين، قبل عقدين، على خلفية جمع التبرعات لغرقى فيضان بغداد المدمر.

تلك العوائل ظلت تتواصل بحنين خفي، يشعرها بالزهو، حالما تذكر مدينة بغداد، فالناس يعدونها مدينتهم الأصل وأن لا شيء يمنعهم من حبها أو التواصل مع شؤونها.

كل الحكايات تظلّ طي النسيان حتى يفجرها التشطي، الذي يبترق أو يشتعل لسبب ما، أناقة فاضل الجمالي كانت السبب في ذلك الهيجان الذي حدث في قرية نائية من ذرى أرمينيا، الوزير بوسامته ووقاره، في أثناء إلقاء الكلمة، كان جذابًا ومثيرًا للإعجاب، حركة يديه وتقاطيع وجهه تعبر عن وقار وحنكة، لقد ادعى بذلك الخطاب أن دولته ترعى أبناءها وتحفظ كرامتهم، عند هذا المقطع صرخ الرجل الأرمني:  
«هذا أخي».

لم تلحق العائلة على مشاهدة الخطيب، الذي أثار حماسة أبيهم، فشريط الأخبار انتقل بسرعة إلى أحداث ساخنة في العالم، فصلّ لهم ما رأى وما سينوي فعله، بعدما وجد أصله، أخبرهم بضرورة الاستعداد للرحيل باتجاه بغداد، مدينة الأحلام التي صورتها الحكايات، وإن بقاءهم المؤقت، من ثلاثة عشر قرناً، أصبح منتهياً، الرحيل لا يعني وجود جذره الذي ظل مع أجداده في بحث دؤوب عنه، بل هو العودة إلى الأصل وإيجاد الأهل.

ينظر إلى حياته البسيطة في جبال أرمينا طوال تلك السنوات مثل نزهة، أن لها الانتقاء، الخروج من العزلة والعودة إلى العالم المتحرك بضجيجيه وحيويته.

لا تخطر في باله إلا الصور الجميلة عن بغداد، كما صورتها الحكايات، إذا كان ثمة تغيير قد طرأ، فلا بد أن يكون نحو الأحسن، فالمدينة في رأيه ستظل وهّاجة، كما يقال دائماً عنها ولن تخبو.

ليس ثمة راوٍ محدد لتلك الحكاية، نتف منها تناقلتها الأجيال عبر مسيرتها، «يارا» في رسائلها تقول: الحكاية لم تكن بهذا الشكل، فقد سمعت أمها، الأخت الوسطى من ثلاث بنات، بأنه جرى التضخيم، اعتماداً على خيبة الأمل المريرة التي شعروا بها عند وصولهم إلى أرض العراق، بل حتى إني، أنا جاكوبيان الشادي، أتذكر أنها ذات مرة كانت تحدث زوجها مزهر بأن الحكاية مختلفة بالكامل، برأيها الموضوع لا يتعدى غير رحلة عائلة باتجاه الاستقرار.

«يارا» لم تنكر الوقائع، لكنها شككت بالمعنى الذي أحيطت به الرحلة، لقد شعروا، بعدما حطوا الرحال في بساتين البرتقال، من أطراف مدينة بعقوبة، فضلاً عن التعب الذي تخلل الرحلة والمرض ورعونة الثلج وتراكمه بالطرقات، إن الاستقرار بحد ذاته سيُجلب لهم الوجد أكثر من الرحلة ذاتها.

انتابهم الانقباض وتبخرت الأحلام، حين حشروا عنوة في مخيمات اللاجئين في «شهربان»، بالضبط بين «شهربان» و«السعدية»، مع أقوام ذي مأساة أخرى وحسبوا عليهم، لقد كانت المخيمات تعجّ بالآلاف من طائفة النسطورين، أتباع «مار شمعون»، الذين جلبوا من أطراف «حكاري» و«العمادية»، إثر مذبحة «سميل» المشهورة عند مدينة دهوك.

جرى جمعهم في مخيمات عدة، بغية توزيعهم وتوطينهم من جديد، ذلك أن الأب الروحي رفض المساومة على شروطه، كان يطالب بعودة «حكاري» إلى حضن الدولة الفتية، التي بدأت تتشكل في بدايات القرن، كانت أزمة الموصل على الأبواب، ومار شمعون يطرق الحديد ساخناً بإضافة قطعة شطرنج جديدة، اسمها «حكاري»، عندئذ تدخل الجيش، فكانت مذبحة «سميل» الحل المتاح.

الأب الأرمني وبناته والابن الفتى لم يسمعوا قط بحياتهم عن هذه الأماكن واعتبروا حشرهم مع هؤلاء القوم خطأ فادحاً بحقهم، فهم ذو أصول معروفة وممتدة في عمق التاريخ وإن كل الذي جرى كان تأخيراً بإقرار هذه الحقوق، لقد ظنوا أن خطاب وزير الخارجية في الأمم المتحدة سيكون كافياً للوصول إلى الهدف المبتغى، المتمثل بالوصول إلى بغداد.

لا أحد استمع إليهم، القادة العسكريون الذين يتولون شؤون المخيمات أيضاً يجهلون هذه الأماكن، الذي يجري إنما هو خلط للأوراق بغية الحصول على «الجنسية»، فالدولة بعد عام ستتظّم إحصاء سكانياً، يساعدها في معرفة الناس، من فيهم الأصيل ومن هو الدخيل.

حدث الهرج والمرج في تلك المخيمات، بعدما عرفوا بحقيقة الإحصاء القادم، عدّوه قانوناً لترحيلهم إلى خارج الحدود، بينما هم يسعون للعودة إلى ديارهم في سهل نينوى.

العائلة الأرمنية حدث فيها التمرد على سلطة الأب، باعتباره المسبب لهذه المأساة، ولا بدّ للأبناء من شقّ طريقهم بعيداً عن وصايا وحلمه الأزلي بالوصول إلى بغداد، عصفت النقاشات بكيان الأسرة وتأزمت الأمور، ذات ليلة، بعدما رفض الجميع تناول العشاء، حتى يقرّ الأب بخطئه

ويصحح المسار، الأب أصرّ على معتقده، معللاً أن العودة من حيث أتوا باتت مستحيلة وأن من الأفضل للجميع التفكير ببغداد، فهي قاب قوسين أو أدنى.  
«شَمْرَةَ عصا وسنصلها».

لم ينصع الأبناء لأبويته أو صوته العالي والصراخ الذي افتعله بغية إسكاتهم، قاد التمرد البنت الصغرى، باعتبارها الأجل وإن المستقبل متاح أمامها، بعيداً عن هذه الجيفة التي وُجدوا أنفسهم بجوارها، يشمّون رائحتها ليل نهار، طرحت رأياً بما يخصها وطلبت من الإخوة: كل يحدد مصيره بنفسه، إن ظلم الآباء يجب أن ينتهي ما دام قد قادنا إلى الخراب التام.

«سأرحل إلى المواردنة، إلى «جونية»».

«وأنا سأرحل عبر الخابور إلى «الحسكة»».

البنت الكبرى، ليس بنوع من الشموخ قالت رأيها، لكن مطأطئة الرأس تتحدث بما يشبه الهمس، مما اضطرهم للطلب منها إعادة ما تقول ليسمعوا جيداً، الفتى قال:

«أنا سأشدّ الرحال إلى «الحبانية»، سأكون تحت حماية الإنجليز هناك».

أهمهم حتماً لا تفقه من الأمر شيئاً، والأب حائر من معرفة الأبناء بكل هذه الاتجاهات ومتعجب من مقدرتهم على جمع البيانات الكافية عن تلك الجهات وتحديد رغباتهم بوضوح.

استداروا صوب الأخت الوسطى، ينتظرون أن تدلي بدلوها بهذا الشأن، بيد أنها كانت تعاني من جرح في كاحلها منذ أمس ولم يُتَّح الألم لها القدرة على التفكير، عندها اضطر الأب إلى الصمت، ضامناً بقاء زوجته وابنته الوسطى، سيكون كافياً لبقاء الأسرة أو تشكيل أسرة مصغرة، في الأيام القادمة سيبحث خياره ومنها تكملة الرحلة نحو بغداد.

لم يجر توديع أي من الراحلين إذ أصبحوا فلم يجدوا إلا أسرة مصغرة، في فراشها تنتاب من الكسل الصباحي، ليس هنالك من شيء يقال أو خدود تلطم أو دموع وداع، لقد جرى كل شيء بهدوء، مثل حلم تبخر في أودية البساتين، جرى بصمت وانتهى، لقد رحلت البنت الصغرى والكبرى والابن الفتى بهدوء، يحلمون بأن نهاية المشوار تلوح قريبة لهم.

الأب ذهب مبكراً وكله تصميم أن يفكّ الاشتباك الحاصل بين أسرته وبقايا مذبحه «سميل»، القائد العسكري أتاح له الفرصة الكافية بسرمد ما يشاء، حين عجز الأب عن الكلام وتكلمة سيرة الرحلة المضنية، خرّ صريعاً وهو يجثو أمام العسكري بنوع من الذل والتوسل، جاءت السكته من حيث لا يحتسب، لقد توقف قلبه من فرط الانفعال، تجمد منكمشاً على نفسه، مما تطلب من القائد استدعاء ثلثة من الجنود، على تمديد الرجل ودفنه بأطراف «شهربان»، مع توصية قاسية:

«ادفنيه بصمت، دون قيل وقال».

بمنتهاى الجدية والتأثر خرج من حاميته إلى ساحة التدريب واختار خمسة جنود وعريفاً مع سيارة زيل عسكرية، سحبهم خلفه إلى زاوية ضيقة من المعسكر، القائد العسكري ينظر بكل الاتجاهات

وكأنه يخشى من أن يُسمع سره العظيم.

«تذهبون... تسألون عن بيت أرمني مخرف، يقول إن وزير الخارجية أخوه... تقصّوا وستجدونه، لا أعتقد أن أحدًا غيره ادّعى هكذا.. تحملون أسرته إلى وسط «شهربان»... تسكنونها، إذا لم تجدوا بيتًا شاغرًا ففي مخازن الجيش مؤقتًا يسكنون... حتى ننتهي من عملية الإحصاء اللعين هذا».

بكل بساطة وبلامبالاة ودون أن يسأل عنها أحد، قبعت الأسرة هناك ونُسي أمرها، كما فصّ ملح وذاب ضاعت الأسرة التي قدمت من أقاصي أرمينيا بحثًا عن جذرها ورغبة في رؤية مدينة الأحلام، التي يحكى عنها ألف ليلة وليلة، وربما أكثر.

كل هذا لم يشكل عائقًا أمام أحد أو أن يهتم به، كانوا رقمًا منسيًا في فوضى تلك الأيام العجاف، التي رافقت مسيرة اللاجئين، من سهول نينوى، ويحلمون بما يجعل الحياة ويجعلها زاهية.

في تلك البساتين الخضراء، التي تتدلى منها حبات يرتقال مثمرة، تبخر كل شيء وصار حكاية، ككل الحكايات التي تروى في الأمسيات، جنب مواقد النار والتنام شمل الأسر.

رحلت الأخت الوسطى وأمها في سجلات الحامية العسكرية للمنطقة إلى مخازن الجيش، وظلنا نتنقلان لمدة ثماني سنوات قادمة من سجل إلى آخر، باعتبارهما ممتلكات عسكرية، تحت رقم: ج اف ٨٨٧٢٤ ل ٢٠، عند إجراء الجرد السنوي للممتلكات، كانتا ترحلان من السجلات المحلية إلى قيادات الفرق الكبرى.

لم يجرّ تمحيص للحالة في هذه الفترة، ذلك من النادر أن تقوم الوحدات العسكرية برمي أو حذف محتوياتها، إلا بصدور أوامر عليا أو القيام بعملية جرد شامل، من مصادفات حظ المرأتين أن الجيش طوال تلك المدة لم يجرّ بعملية الجرد تلك، لانشغاله في شؤون الدولة ودخوله المعترك السياسي بمجموعة انقلابات عسكرية، مما جعل القادة الميدانيين أكثر انشغالاً بتأمين شؤون الرعية.

في بعض الأحيان يطرح قائد ما، حين تمرّ عليه قوائم الجرد الفرعية، اسمي «دوسكي وسيتا» إذ يسأل عن معنى الاسمين، إن حدث هذا يبادر بعضهم بالقول إنهما اسمان محليان لأعتدة حربية، لم تعد صالحة للاستعمال، مهملة في مخازن الوزارة، بقاطع عمليات «شهربان».

«لم لا تتخلصون منهما إذن؟».

ينبري من لا يعرف الحكاية بالتذكير بطبيعة الأوامر الداخلية، بأن شيئاً كهذا لن يحدث، إلا بتشكيل لجنة وموافقة قيادة الفرقة، عندئذ يتراخي أيّ قائد، خطر بباله السؤال عن معنى وجود «دوسكي وسيتا» في سجلات العسكر، فينسى الأمر، بانتظار سنة جديدة وجرّد في آخر العام القادم.

مستودعات «شهربان» بقيت مكانها ولم يجرّ نقل محتوياتها طيلة الفترة، بناء على اتفاق مسبق في قيادة الجيش، منذ حدوث أول انقلاب عسكري، حينما تحركت القطعات من هناك باتجاه بغداد، إذ يتوقع القادة ذات يوم سوف تجري محاكمة هؤلاء الانقلابيين ولا بدّ من طلب بعض الأدلة عنهم، فبقيت المخازن كشيء مهمل وغير مهم، لكنه يرد بقوة في سجلات الجيش، الذي ترك المنطقة وصار مقرّ عملياته في «معسكر الرشيد» ببغداد.

الأم وابنتها، في كل مناسبة عامة، حاضرتان للمشاركة في الطبخ والنفخ والقيام بالجهد المطلوب في تهيئة الاحتفال، لم يبادر أحد من الجنود والضباط بالسؤال عن معنى وجودهما في المخازن، لكن في زحمة العمل والتحضير للاحتفالات يجدون في خدمة امرأتين عوناً لهم، حالما ينتهي الاحتفال، يعود كل شيء إلى مكانه ويُنسى أمر هاتين المرأتين ومصيرهما.

لم تكن «سيتا»، البنت الوسطى، تقوّت فرصة، إلا وتوصي من يمرّ عليهما أو يطلب خدمتهما، بمد يد العون، بهذه الحالة تضطر أن تشرح له حيثيات القضية منذ البدء، باعتبار نقلهما إلى «شهربان» تمّ مؤقتاً، بناء على أمر القائد العسكري وإن المؤقت هذا زال، بعدما بقيتا هذه المدة ولم يظهر وليّ أمرهما الذي خرج ذات صباح ولم يعد، ومن باب تجبير الخواطر كان الجنود يسألون:

«إلى أين ذهب؟ ومتى يعود؟».

هنا، بهذه النقطة المفصلية لا جواب مقنع، ذلك إن الأب لم يعد إطلاقاً، مما حدا بهن أن يختلقن حكاية عن الاختفاء، حكاية تحفظ بعض الأمل بعودته وإنقاذهن من برائن جمود ممتلكات مستودعات الجيش.

«بعضهم شاهده يطير نحو أرمنيا، والآخر يقول إنه كان يتجه صوب بغداد، لا أحد يعرف وجهته، دائماً الغائب حجته معه».

«لكن كيف طار؟».

«لن تصدق، تعال أحكي لك شيئاً أغرب من الخيال، هو كان خفيف الوزن ومن السهولة أن تحمله الريح....».

لا أحد يصدّق والمرأتان ترويان الحكاية حفظاً لبقية ماء الوجه، الذي أريق منذ أن دخلوا هذه الأراضي.

لم تكن بحاجة لإقناع الآخرين بحكاية الطيران، «سيتا» تروي الحكاية على أنها وقعت فعلاً، إذ لا تحتمل فكرة هروب الأب وتخليه نهائياً عن الرحلة، نتيجة إصابته بالإحباط، ذلك في نظرها مستحيل، لقد أفنى الرجل حياته وراء حلم جميل، ولا يعقل في لحظة عابرة تخليه عن مسعاه، لا بدّ من وجود أمر ما سبّب غيابه بهذا الشكل المفاجئ، فالأب لم ينوّه عن غيابه ولا يجوز التفكير بتأتاً بأنه هرب بجلده وتركهما وحيدتين في الغربة. بحثنا الموضوع بجدية ووصلنا إلى قناعة بأن الرجل قد طار فعلاً لقضية مستعجلة، حديثهما عن طيرانه كان يعادل مدى الأسى الذي أحاطهما بعد غيابه.

في نهاية تنقلهما في السجلات، أدركت «سيتا» أن لا مندوحة من الهرب، عرضت خطتها على الأم، بالتسلل ليلاً من المستودع والوصول إلى «السعدية» أولاً، ومن هناك تهربان لأيّ مكان آخر، جنود الحراسة سيسهّلون مرورهما خفية ليلاً، ما داموا منذ مدة يتحرشون بالفتاة ويطلبون جسدها بالحاح، الأم خافت من اغتصاب ابنتها فقبلت بخطة الهروب، شرط أن تمتلكا بعض المال للتنقل وضمان الهرب، اقترحت لذلك المرور على القائد العسكري وطلب المال، مقابل الخدمة المتواصلة للأيام الخمسة الأخيرة للاحتفاء بعيد الجيش، البننت رفضت الفكرة، مخافة أن تذهب الأم، كما الأب، ولا تعود، ربما تخلق لها جناحين فتطير أيضاً.

في صبيحة ليلة الهروب المقررة مرّ القائد يتفقد القطعات وخطر بباله المرور على مخازن الأسلحة، كان قد وضع في باله منذ العام الماضي أن يستقصي بنفسه عن «دوسكي وسيتا»، بوقتها لم يرض بكل التفسيرات التي قيلت، ما إن انتهى من التفتيش حتى انحرف باتجاه جملون طويل في آخر بناية، عند الباب هزّ عصاه، التي كان يتأبطها:

«أروني «دوسكي وسيتا»، سأفجرهما، على عاتقي».

مرافقه القصير لم يفهم مقالته، لكنه سارع بفتح بوابة المستودع لتلوح له فتاة بمريلة شفافة وشعر كستنائي وبريق أخاذ من أشعة الشمس ينعكس على جسد ممشوق، صعق الرجل وتراجع القائد،

كأن قنبلة فجرت نحوهما، الفتاة «سيتا» لم تقل شيئاً، إذ شعرت لحظتها بأن ثمة من أفسى بخطة الهروب، لعل أمها هي الخائنة، فوجهت نحوها نظرة قاسية.

«يا هلا..».

الأم تهلل وترحب بالفائد، إذ رأته كما في حلم الليلة الماضية، إنه المنفذ الذي سيسعى لعتقهما.

«من أنتما؟».

«دوسكي وسيتا»، امرأتان من دم ولحم».

سمع الحكاية كلها وشرب الشاي من يد الأم وروى نكتة عن جمال «سيتا» وسأل عن اسم قريرتهما في أرمينيا واسم الرجل الذي جاء من نسله، وكيف قطعوا الطريق وصولاً إلى بساتين البرتقال، ثم تعيّرت لهجته بأن مال إلى الصرامة وسأل إن كانتا مارستا الجنس مع جنوده طيلة هذه المدة، تمتم بكلمات قليلة، عندها أصبح الحديث مملاً، مما اضطر «سيتا» لأن تعلن رأيها بوضوح:

«إذا لم تفكّ أسرنا الليلة، سنهرب».

إزاء البريق الذي شعّ من عينيها وإصرارها على القول بمنتهى الوضوح، أدرك القائد أن «دوسكي وسيتا» اللتين تعدان من ممتلكات الجيش، لا بدّ من اتخاذ قرار تحت مسؤوليته الشخصية بالتخلص منهما.

«أنتما أحرار من الآن، هيا انطلقا».

جهز لهما سيارة نقل، وأحضر مراسله بعض النقود من الخزانة وكتب لهما توصية ورسالة إلى صديق في مدينة «مندلي» وأخرى إلى رئيس «نادي المشرق» في بغداد.

قبّلت «دوسكي»، بعدما خلع «البيرية» وأحنى رأسه وبانت صلغته، طبعت قبلة ودودة، «سيتا» بكبرياء مجروح احتضنته وهي ترسم علامة الوداع، كان الرجل من الطيبة بأن دمعت عيناه، بعدما غادرتا بوابة المعسكر.

بعد رحلة ثماني سنوات وثلاثة أشهر أن لهما تنفس الصعداء، إذ بعد كل ما جرى من تضيق ووجدن أنفسهن في حقول من الزهور، وآخر على امتداد البصر أخضر، الشمس من وراء التلال البعيدة تلوح محيية ضاحكة، تقدمان أول مرة إلى «مندلي»، تذكرهما بابتسامة الإشراق الصباحية، التي تبصراها في جبال أرمينيا، «دوسكي» من فرط انشراحها بهذا المنظر البهي بكت، سألت الدموع غزيرة، حتى شعرت أن الضيق المكبوت في صدرها بدأ ينزاح.

«سيتا» قالت: إن الحياة بدأت تطل الآن ولا بدَّ من بداية جديدة، ما دام قد وجدنا بهذه الأرض، عليهما قطع حبال الوصل بالماضي والنظر إلى الأفق الذي يصعد جميلاً من وراء التلال.

المدينة ما زالت غافية والمرأتان تتجولان في شارعها الرئيس، أحستا بالألفة والانشراح، سيارة «الزبل» العسكرية، عند كراج السيارات الفارغ توقفت، أعلن السائق أن مهمته انتهت عند هذا الحد، وإذا رغبتا فإنه سيبقى تطوعاً، لحين ما تجدان الرجل ذا التوصية من قائده، لكنه شدَّ على أيديهما قائلاً:

«أنتما بعشرة رجال، لا يُخاف عليكما».

ذهب ملوِّحاً بابتسامة عذبة، إثرها قالت الأم جملتها الشهيرة:

«لأول مرة أشعر أن ثمة فرحاً وأناساً طبيبين بهذه الديار».

هذه المدينة ستظل علامة فارقة في مسيرة الأسرة، إذ ستمكث المرأتان ثمانية عشر عاماً قادمة، وستعيشان بين الناس والحقول منشدات لأغانٍ وألحان جديدة، وستجد «سيتا» فرصتها بالاقتران من ذلك الشاب الذي وصلته رسالة القائد، وستجد في عمله وشطارته ما يعوضها عن كل الخسائر الماضية، وستكفل نجاحاتها بمولودة جديدة، جميلة وتشبه أهلها وأقرباءها في أرمينيا، وستطلق عليها اسم «يارا»، تيمناً بحقول الزهور هنا.

لم تكونا تطمحن بأكثر مما ترتب لهما في «مندلي»، إذ إن أقصى طموح كان ينتاب «سيتا» أن تستقر في بيت سعيد وتنسى الرحلة الملعونة، من ضمنها الأب، الذي طار ولم يعد، فضلاً عن انقطاع الصلة مع الأختين المهاجرتين والأخ الضائع في «الحبانية».

«دوسكي» لم تتعدَّ أحلامها إلا العيش مع ابنتها، في ظل طيبة الناس التي لمستها هنا منذ اليوم الأول للوصول، لا تشعر بماضٍ تحن إليه أو تفكر بالعودة إليه، حتى لو ضيَّعت بعض أفراد أسرتها، كان يكفيها «سيتا» بمعيتها طوال اليوم، تخرجان معاً إلى الأرض الخضراء الممتدة كبساط وتلحق بهما النسوة، بالذات الصبايا، ويبدأن التدريب اليومي على الرقص والغناء وقطف الأزهار.

الحفيدة نمت في حقول الزهور، تراقب حركة سيقان النساء، في أثناء الرقص، حالما تشعر بالجوع ترفرف مثل فراشة تخفق ساقاها في الريح فتهرع لها أيُّ من النسوة، يرضعنها أو يحملنها إلى

حلقات الرقص.

«يارا» منذ صغرها أحست أنها بالرقص ستحيا، وأن تلك النشوة وهي تتمايل بعربتها «البلاستيك» مع الراقصات ستكون كل حياتها، وأن حقول الزهور تلك ستجعل من انشراحها علامة على الفرح الذي ينطلق مع الرقص.

لم تع أباهها جيداً، تراه يدخل ويخرج ويغيب أزمنة طويلة وتسمع أنه يسافر عبر الحدود، يجلب بضاعة أو يذهب محملاً بصناديق، وأنه من الحلاوة بأن يحضر لها في كل سفرة له هدايا متنوعة، تفرح بها وتعرضها على البنات الصغار وتفتخر بأنها من وراء الحدود قادمة، تقضي أوقاتاً مثل دمية بين بيوت الناس تنتقل، برغم صغرها لكنها كانت تعلن عن رغباتها بجسدها من خلال التمايل أو تنغيم صوتها بتحويله من بكاء إلى صيحات وهمسات، كما ينشدها الناس في مناسباتهم العامة.

الأعوام مرت متتالية لم يكدرها إلا المرور على دائرة البلدية لأي سبب طارئ وكان أغلبها شكوى «دوسكي» من آلام المفاصل، حين يوقفهما موظف المستوصف طالباً بطاقة «الجنسية»، في البداية لم تكونا تعرفان معنى هذه الكلمة، «سيتا» أخبرت زوجها بالأمر والذي نقل الخبر إلى بيوت المنطقة، وقتها شعروا بالهاوية، التي ما بعدها إلا الصمت.

«لا يمكن الحصول على «الجنسية»، ما دامنا قد فوتنا إحصاء عام ١٩٥٧».

عندها تلوح الغمامة فوق عينيها، المتمثلة بالحجز في مستودعات الجيش، تفضلان الصمت ولا تطرقان الموضوع من جديد، ذلك اتفاق ضمني وصلنا إليه ولا بدّ من نسيان أمر هذه الأوراق الثبوتية للعينة ولا بدّ من التكيف مع الواقع من دونها.

بعض العوائل حين تلتقي كانت النعمة السائدة إذا مرّ ذكر الموضوع، تقول جملة تتلج قلب المرأتين:

«أنتما سيدتا هذا البلد، بالأوراق أو من دونها، الفرح الذي تنشرانه كافٍ أن يدلل عليكما».

بهذه المودة مضت السنوات، عام يجر عامًا، حتى بلغت الأعوام مداها، ثمانية عشر عامًا كان كافيًا لأن يحدث تحول في المسيرة، لقد لاح في الأفق، حين توفيت الجدة «دوسكي» في حقول الزهور، والأم «سيتا» تضيع عبر الحدود بعدما لحقت بزوجها المحتجز هناك بدواعي بيع شحنة كبيرة من قناني الويسكي المهربة، كان قد اتفق مع تاجر من مدينة «تبريز»، لكن الطرف الآخر نصب الكمين وأوقع به.

هل كانت الأخت الوسطى تدرك أن ثمة خيبة أمل مريرة بالنسبة للأسرة باقترانها بزواج يعمل في التهريب؟! يوم حدث الزواج وافقتا عليه برحابة صدر ولم تعرفا من قبل معنى اشتغال الرجل في التهريب، لقد ظننا بأن الزوج سيجلب راحة البال ويخلصهما كلية من آثام الرحلة المشؤومة.

الرجل بشهامته وكرمه كان أهلاً للاقتران به، لهذا لم تدققا جيداً في طبيعة عمله، فالرجل لا يعاب سوى تقصيره تجاه أسرته، تصورتا أن الفرح سيهل مع كل سفرة يقوم بها الزوج، الآخرون من أهل المدينة لم يعيروا أهمية للأمر، باعتبار التهريب مهنة شائعة في أوساطهم، فهي مصدر رزق

ونقل للبضائع من مكان إلى آخر، من دون اعتبار للحدود القائمة بين المكانين.

«سيتا» لم تظن مصيدة نصبت لزوجها، بل حادث عرضي ولا بدّ من الذهاب لمعرفة الوضع، برغم أنها استقصت عن معنى مهنة التهريب ومخاطرها وإن عبر الطرف الآخر حدوداً دولية، اقتنعت بأنها ستنجو وتجلب الزوج معها، عندها ذهبت، لكنها لم تعد أبداً لسبب ما.

«يارا» الشابة، بنت السبع عشرة سنة ألفت نفسها وحيدة، وكان لا بدّ من اتخاذ قرار بشأن حياتها.

سأهين نفسي للدخول في معترك حياة الوالدة، وستكون أحياء بغداد الواسعة الفضاء الذي أدور فيه، المرحلة القادمة ستبدو كمن يبحث عن إبرة في كومة قش، ليس من السهولة الاستدلال عليها، خاصة أنها بكل مراسلاتها- لم تدون عنواناً محدداً، ولا تذكر اسم منطقة، كأنها تتحدث عن جسم هائم في كون واسع، ربما كرهها لما وصلت إليه جعلها تأنف عن التحديد أو أنها لسبب ما يتعلق بي كانت تتحاشى ذلك التحديد.

قصّ سيرتها سيختلف كلية عما مرّ في حياة العائلة، فهي في مسارها وبحضورها إلى بغداد اختطت لنفسها طريقاً، يختلف جذرياً عن بقية أفراد الأسرة، لقد كانت من الوعي بأن تعرف ما تريد وسعت إليه بكل جهدها، بعد هذه الرحلة المضنية يحقّ لي القول إنها كانت شاطرة في مسعاها، لكنها لم توفق.

ليس العلة فيها بقدر ما ترافق مع حياتها من أحداث جسام، أثرت بشكل مباشر بحياتها، وربما حرّفتها عما كانت تنوي وتتمنى، فهي لم تدخل مدينة آمنة ومستقرة لتحدد بموجبها خطواتها، بل المدينة كانت تتفجر كل حين، وتطرح أشكالاً مختلفة من الحياة، في معظمها كانت نتائج حرب الثماني سنوات ثم فترة «الحملة الإيمانية» أمواجاً من الأحداث تلاطم الواقع وتحرفه عنوة باتجاه الخراب الذي شمل مرافق الحياة والبشر.

هذه القراءة تبدو عامة ولا تعني والدتي بشيء، أنا المتابع والباحث عنها أضع الظرف العام أمام عيني قبل البدء بالبحث عنها، وهو المتيسر بسهولة أمامي، أما في العمق فحياة المرأة ومعيشتها اليومية ما زال طلسمًا، لا أعرف عنه شيئاً.

أوراقها التي كانت تصلني في أجنحة الطيور وأنا رغد العيش في باريس، لم تحمل إشارة معينة لحكايتها، في الغالب تتحدث عن معاناتها، بالذات مشكلتها المزمنة:

«بنيّ، هل تعي أن تكون محروماً من مكان، سيبدو لك أشدّ إشراقاً وأكثر نضارة وستتشبث به، كما الحلم، بلى أنا أحلم أن تكون لي مدينة، تأخذني بين جناحيها...

كل حياتي وأنا أحلم، أن أصير بنت هذه المدينة، تمنحني أوراقها، لا باعتباري غريبة، بل إنسانة، لها حق الانتماء لهذه الأرض، التي عاشت بها، آه.. أمنية صارت علة في قلبي، سنوات من الركض وراء سراب».

أشعر بالمرارة، بما كان ينتابها، وبرغبتها المخلصة بأن تكون مواطنة، مثل بقية الناس، تحمل الأوراق الثبوتية الدالة على ذلك، لكن بالمقابل أشعر أن سعيها المحموم نحو هذا الهدف غير مقنع، من باب عبثية ما تسعى في واقع يسير نحو التفسخ ولا يعير أهمية للبشر في إثبات الذات، المجتمع في نظري مثل ماكينة كبرى والجميع تروس فيها، من دون الحاجة للنظر في التفاصيل التي هي ذوات منسحقة.

أعرف أنني أرى الأمور من منظار آخر، لا يمتّ بصلة لما يدور بالداخل، المواطنة وتحصين

الذات في فرنسا تختلف جذرياً عما عليه بهذه الديار ، حاولت مراراً توصيل فكرتي لها بالانتقال للعيش في باريس، أعلم أن لا رسائل أصلاً تصلها، في الحقيقة لم أجرب كتابة هذه الرسائل، على هيئة أمنيات حين أطل برأسي من نافذة الشقة وأشم الهواء المنعش ملء رئتي، أنفثها مع حيني إلى حضنها.

أتحسر قليلاً ثم أناجيها، أتمنى من تلقاء نفسها الإدراك بأن الانتقال صار أمراً واجباً.

المرأة -أنا هنا أفترض بناءً على محتويات أفكارها بالرسائل- كانت سادرة، مقيدة إلى رغبتها الدائمة، البقاء في بغداد والحصول على المواطنة، حقها وهدفها وسعيها، كيّفت حياتها وفق هذه الخاصية، حتى رقصها سخّرت لهذا الهدف السامي.

عليّ الاعتراف فضلاً عن صعوبة الوصول إليها- لا أملك معلومات كافية عن مسيرة حياتها، فكل الذي أتذكره أيام كنت صبياً وهي تهدهدني للنوم أن تروي نطقاً من السيرة، سيحتاج مني الأمر الحفر عميقاً، بهدف الوصول إلى المرأة قبل موتها ولحدها في القبر، الذي جئت من أجله. جلّ الأمر إنها تذكر ثلاثة أماكن، عرضياً في الرسائل في معرض حديثها عن حالة تنتابها، الأمكنة هذه ستكون مشوار رحلتي غداً برفقة هند للبحث عن دليل، قد تكون مرّت من هناك أو هذه المحطات الثلاثة شكّلت علامة في حياتها.

في بئر الأسطى طه تنام الأسرار، المضمّر الذي لا نعرفه والذي كان محور حياتها يُخبأ فيه، الوصول إلى تلك البئر يعادل المستحيل، إزاء انغلاق الأسطى وكتمانه وعدم الرغبة في البوح، برغم توسلاتنا أنا وهند في الأيام الماضية والتي لم تجد نفعاً، فالرجل يصرّ على عدم المعرفة وأننا نتوهم خيالات، غير موجودة في الواقع، ارتضينا السكوت والبدء من تلقاء أنفسنا في البحث عن أمّ في أحياء بغداد.

الصعوبة لا تكمن -كما في سيرة العائلة- في سدّ الثغرات بالمتخيل، حين لا تتوفر الوقائع، بل إن حياة «يارا» تختلف كلياً، فهي بنت واقع متحرك يومياً والناس قد شهدت الأحداث وعاشتها، لذا ستظل الثغرات والنواقص كما هي، إن لم تردم من قبل عارف ببواطن الأمور وما جرى فيها.

في مسيرة «دوسكي وسيتا» كان من السهولة عليّ ملئ الفراغات بما يتحتم، لتبدو السيرة متماسكة، برغم بعد المسافة والزمن، الوثائق كانت حاضرة والتاريخ أيضاً، مما أعطى لحياة المرأتين ألقها الخاص وطعمها المميز، عليّ العكس من «يارا»، كانت تصنع تاريخها بنفسها، بعيداً عن العام، في كثير من الأحيان تختطّ لحياتها مسيرة تخالف الآخرين، بما في حياتها من تفاصيل.

منبع الاختلاف، الذي كلل ورسم حياتها، نقطتان امتازت بهما، الجمال وطريقة الرقص، وهما لا يمكن الروي عنهما إلا بواسطة شاهد، عاشهما وعاصرهما.

«بلى، أذكر مثل هذه الفتاة، كانت قد مرّت علينا في «نادي المشرق»، بيدها رسالة توصية من قائد عسكري إلى مدير النادي المتوفى، منذ عشرين سنة».

فتاة رشيقة، نشطة ومرحة ولها جسد يخلب العقل، وقفت عند الباب وكنت أجلس بهذه الغرفة نفسها، بحضرة ضيوف وأصدقاء، ما إن ولجت الباب حتى تعالت صيحات الترحيب بشكل صاخب، الوقت كان عصرًا وأمامي المتسع أن أصرف هؤلاء الضيوف وأتفرغ لها، في الحقيقة راقت لي كثيرًا، تصورتها مثل البقية، اللائي يبحث عن عمل ومن السهولة اصطيداهن، لكن نظرة واحدة منها تجعلك تدرك أي فتاة هي، إنها الجبروت بعينه، بحضرة ملكة كنت أقف، كل شيء فيها يوحي بالعظمة، حتى قوام جسدها لا يكفي أن تقول عنه رشيقًا، بل هو شيء نادر، مثل تمثال صُبَّ بيد فنان ماهر، تفرغ له طيلة حياته وأقن صنعه، لو أنها عرضت على «مايكل أنجلو» فلن ينحت قوامها، إلا بهذا الجمال والتناسق. برغم صغر عمرها، بيد أنها قوية وجبارة، تلتقط ما تراه بعين مدربة على الثبات، نادرًا ما كانت ترمش، كأن المحجرين راسخان أو تحجرا هكذا، بنظرة طرية ومفعمة بالحوية والتألق تتحدث.

كنت أستمع بشغف، لم تكن تشكو سوء الزمن وجوره، بل كانت كمن يشرح حكاية، تدرجت بحياتها حتى وصلت إلى الزمن الحاضر، كانت تظن بأن رسالة التوصية كافية بفتح المجال لها في بغداد، لم تقل شيئًا محددًا تجاه مهنتها، كنت أتصور حتى تلك اللحظة أنها مغنية، فصوتها عذب ويحمل طراوة وانتعاشًا حين يصلك، أخبرتها بأن رسالة التوصية لم تعدْ بذى أهمية وأني مستعد لتلبية طلبها الذي جاءت من أجله، من وضعها وحالتها تبدو باحثة عن عمل، لكنها لم تصرّح بذلك، كانت تريد أن تستشف المقابل، أهو أهل لهذا الطلب أم لا؟ أدركت ذلك من خلال تشعب الحديث معها، كنت قد طلبت لها أكثر من مرة القهوة، عند الفئجان الثالث حدث ما لم يكن في الحساب، حينما قربت الفئجان من شفيتها حدث الانفجار.

دوي هائل ارتجت له البنايات وتعالى التراب في الشوارع، صوت يصمّ الأذان، كان ذلك يومًا مشهودًا في حياتي والناس، إذ به ابتدأت حرب الثماني سنوات.

لا يمكن نسيان ذلك التاريخ، وأيضًا لا يمكن نسيان «يارا»، ترافق الاثنان معًا، لكنها فعلت ما لم يخطر ببال أحد، لقد أصابنا الهلع والخوف، الناس صارت تهرب من النادي والبيوت، خرجوا جميعًا إلى الشوارع وكأنه يوم الحشر، «يارا» بحركة يدها وعينها كانت تسألني: «ما هذا؟». قلت وملئي الرعب: «إنها الحرب يا أنسة». عندها خرجنا جميعًا إلى قارعة الطريق نستطلع السماء عن النبأ اليقين، يارا غنت: لنحيا بسلام، تلك الأغنية العالمية الشهيرة.. في منتصف الشارع لعل صوتها هادرًا أولاً ثم هادئًا من أنسام رطبة سرت فجأة، الناس الواقفة في الشوارع تتطلع صوب فتاة مجنونة، في اللحظات الأولى لم يكثر ثوا لكنهم رويدًا اندمجوا معها، عندما تصاعدت من جسدها نغمات الجاز والسكسفون والأبواق النحاسية، كنا نسمع أنغامًا متناسقة، تخرج من جسدها، عبر رقص مدهش، لقد تحولت من الغناء إلى الرقص.

بعض طلبة معهد الفنون ورواد النادي اصطفوا خلفها، وعلى حركة جسدها كانوا يعزفون بآلاتهم، الجموع وراءها تهدر: نريد أن نحيا بسلام، هي مثل مارد، يقود الجموع، كتلة واحدة نحو اليمين أو الشمال من عرض الشارع، لقد نسي الناس الانفجار والحرب وطربوا معها.

لحظات وأحاط بنا رجال الأمن، ضربونا بالعصي وأطلقوا النار، لكنهم في النهاية استمعوا لها، غنوا ورقصوا أيضًا... يا لتلك اللحظات من الجنون، التي لن تُمحي من ذاكرتي أبدًا.

أهلاً وسهلاً، أنا المسؤول الإداري لمطعم الطاحونة الحمراء، تسألان عن فتاة اسمها «يارا» في بداية عقد الثمانينيات، أسف لا أستطيع أن أفيدكما بشيء، في تلك الفترة كان المطعم على وشك الإغلاق، بسبب المتاعب التي رافقت الحرب، برغم أننا فتحنا المطعم في ما بعد، في بداية الحرب عانينا كثيرًا، إذ الفرق الغنائية العالمية أخبرونا بعدم الحضور، أنتما تعرفان أكيد أن مطعمنا ماركة عالمية وغالبًا ما كانت الفرق الأجنبية تقدم عروضها فيه، غناء أو رقصًا، الإدارة وبعد كساد الشغل كثيرًا قررت غلق المطعم فترة من الزمن، ريثما تنتضح الصورة العامة، لا أكنتم سرًا، السبب الحقيقي للإغلاق كان نوعية الزبائن، التي بدأت تطفح على سطح المجتمع، لم تعد تلك العوائل الراقية أو الشخصيات المهمة، بل مشوهو الحرب، يطلبون عروض «شخلعة»، مما أدى إلى إغلاق المحل.

ربما الفتاة، التي تسأل عنها، بتلك الفترة قد قدمت طلبًا للعمل، لست متأكدًا من هذه النقطة، إذ لم أكن أعمل هنا وقتها، لكني لاحقًا قد تعرفت إلى فتاة بالموصفات نفسها، تجيد الرقص التعبيري، للحقيقة هي ليست تجيد هذا النوع من الرقص، بل هي مبدعته، لا أحد كان يشاطرها هذا النوع من الرقص، كل الفتيات اللاتي تعلمنه لاحقًا كن تلميذات لها، راقبناها حين ترقص أو أعطتهن دروسًا بكيفية الرقص، يجب أن نعترف بأحقيتها في هذا المجال، فكل عضلة في جسدها كانت تتطق، تعبر عما في دواخلنا من لوعات وأشواق وأمنيات... ياه، لقد كانت فتنة.

لا تثيرا شجوني، أه.. تسألان عن «يارا»؟ يا لذلك الزمن، يا لتلك الروح المثابرة والكبرياء، أو يا لطبيعتها ومحبتها وجمالها ورقتها وإنسانيتها.

ربما تكونان قد سمعتما بأن هذا المكان في الأصل كان مقهى، مركز تجمع للوسط الفني في منطقة كمب سارة، حي الأرمن، الذي كان مكانًا مشغًا للحفلات الموسيقية والمطاعم الراقية.

تعرفت على «يارا» منذ البدء بشكل عابر، في فترة لاحقة عن كئيب عرفتها، بالضبط بعدما اشتدت «الحملة الإيمانية» وضيق الخناق على الوسط الفني وأغلقت معظم المحلات، بتلك الفترة شملنا التضييق، إذ حولت المقهى إلى مخزن لبيع المواد الغذائية، لم يكن أمامي من سبيل للعيش، إلا البحث عن لقمة الخبز بين الخرائب، كنت أتشاطر بالحصول على بعض المواد الغذائية بطرق مشروعة أو مهربة، جزء من المقهى -الواجهة فقط- لبيع السجائر وفي الخلف أخبئ المواد الغذائية المهربة، لا أبيع لأي كان، بل من أعرفه جيدًا من الزبائن القدامى، الحال كانت تسير بالقهر والتعب حتى أطلت «يارا» مثل ملكة، طلبت كرسياً وجلست هنالك، سأريكما الكرسي والمكان، ذكرى عزيزة أحتفظ بها حتى الآن، سألت عن أحوالي، كنت أجيب وأنا مبهور من طريقتها بإدارة دفة الحوار، حديث طويل، حتى قدمت اقتراحًا: اترك التهريب والسجائر واجعل المحل مخصصًا

لبيع «البسطرمة» فقط، هل يخطر ببالكما أن امرأة من السماء تهبط وتمتلك أنامل من الذهب ولها جسد بلوري تصنع «البسطرمة»؟ قالت: بلى، أنا أرمنية الأصل، أهلي يصنعونها في الصيف ويخبئونها لمواسم البرد، تعهدت بتجهيز المحل بالكميات الكافية، بتلك الفترة صرت أشهر من نار على علم، أدعي أمام الزبائن بأني صانع «البسطرمة»، لكن تلك السيدة من كانت تصنع وتجهز وتدير عملها بإتقان... يا لتلك الذكرى من جمال وفتنة.

خرجنا، أنا وهند، من الأماكن الثلاثة، بعد جولة دامت أربع ساعات ونصف ونحن أشد دهشة وأكثر إرباكاً، إزاء هذه السيدة، التي لا يعرف لها قرار، «يارا» الأم، التي رسمت أنماطاً شتى في تعاملها مع الحياة والناس والتي أسعى وراءها الآن في أزقة بغداد.

أشعر بالنفور تجاه أسطى طه، يخامرني إحساس أنه يعرف كل شيء عن حكاية أمي ومع ذلك يجعلني أدور في حلقة مفرغة ولا يحرك ساكنًا، أو على الأقل يقدم النصح تجاه ما أفعل، يراقب حركتنا باتجاه البحث عن الأم، لكنه يلتزم الصمت المطبق.

بالمقابل أشعر بالامتنان الكبير له، إزاء الفترة التي تواريت في بيته والرعاية الأبوية التي أبداها نحوي وأنا صبي ابن السادسة من العمر، ما زال في داخلي ذلك الشعور الجميل بأنه أبي الفعلي، فقد تفتّح وعبى في بيته وبصحبة هند.

بعدما طلبني، صبيحة هذا النهار للخروج معًا، شعرت بالقرص، لم يعد النفور كافيًا ولا بدّ من الإعراب مباشرة بما يختلج من مشاعر، أن يعي فعلته الشنيعة وغير اللائقة، توانيت بقذف حمم بركانية تجاهه، حينما خاطبني على صينية الفطور، هند تدرك ما يعتمر بداخلي، أحيانًا تشاطرنني الرأي، لكنها تجد المبررات لتصرفه:

«قد يكون لديه ما لا يوّد أن يصدّمك به، يريدك أن تكتشفه بنفسك».

في مرات أخرى، حين نتطرق للحديث عن تصرفاته، ينتابها الحنق وتعدّ ذلك نوعًا من «السادية»، لكن سرعان ما تتراجع باعتبارها خبرت طبيعته وتعرف أنه لا يسلك طرقًا كهذه، وإن ما يجري ينمّ عن سرّ عميق بداخله.

تقبلت دعوته هذا الصباح كتحصيل حاصل، فالرجل حقًا يسعى جاهدًا لبناء القبر والإعداد له، أي بمعنى أنه يمدّ يد المساعدة بطريقة ثانية، عليّ أن أكظم غيظي قليلًا وإيجاد متنفس للرجل الذي يفور بداخلي، وضعت في تصوري أن ثمة فرصة ستلوح اليوم، لا بدّ من اغتنامها بشكل مثمر.

تجهزت، بانتظار لحظة الخروج من البيت، هند توصيني بتجنب الأماكن التي تسطع فيها الشمس، فهي حادة وتسبب دوخة بالرأس، خاصة وقت الظهرية.

«أين ثمة ظل، قف به».

لكل كلمة تقولها أبتسم وأشعر بالامتنان، فيها مودة لحد الرعاية الأموية، تتصرف كثيرًا بهذا الاتجاه، حين أذكرها بصغر عمرها، تضحك وتقول:

«مع ذلك، أنت بمكانة ابن لي».

بوجودها أشعر بالفرح وأن الحياة قابلة للعيش بمعيتها في خضمّ هذه الفوضى، التي أراها هنا، وتضرب أركان الحياة، من الناس إلى الشوارع.

«هيا بنا».

حزم أمره أخيرًا وخرج، مثل ديك يتبختر في مشيته المتعثرة، صلب العود والظهر، سحب معه الابتسامة حين خرج، كان من المنطقي بالنسبة لي أن أتبعه لكنني تعمدت عدم الخروج، أغيظه

قليلاً، لم يلتفت، مما جعل من حركتي بلا معنى، دفعتني بتودد هند، عند الباب بعثت ورائي عبر أصابعها قبلة طائرة وابتسامة عذبة.

نحو قبر الولي الصالح نسير، ليس ببعيد، بيد أننا يجب اجتياز حارات عدة والتواءات حادة، كي نكون عند باب الصحن، الذي كان آخر مرة في الجهة الجنوبية الغربية، ربما سنجده الآن في مكان آخر، هكذا تقول الناس، البوابة الخارجية لم تكن في يوم ما ثابتة في مكان محدد، بل تتغير بموجب حركة الريح أو رغبة الناس.

أسطى طه يتأبط مجموعة أوراق وخرائط ملفوفة، ينتظره مهندس مدني في الموقع الآخر يبدو من الشيب أنه عمّر طويلاً واختبر الحياة بشكل جيد، ثمة انحناء قليلة في ظهره، لكنه حسن المنظر والهندام، عرّفي عليه بأنه مهندس عمران معتمد لدى دائرة البلدية سابقاً وخبير الآن في شؤون تراثيات مدينة بغداد، لا يجوز بتاتاً إطلاق أي مشروع بهذا الخصوص من دون أخذ مشورته أولاً.

بنوع من التبجيل انحنيت وأنا أمدّ يدي للسلام، استلم الإشارة بسرعة، بمودة حانية تساءل:  
«هل أنت تربية الإنجليز؟».

ضحكنا معاً، ثم بدأت الأوراق تفتح، والخرائط تمتد فوق جسد سيارة الخبير، أرى خطوطاً كثيرة وتقاطعات ورسومات بقلم الرصاص، ثم أخرجاً خريطة أخيرة، فيها التصميم النهائي للبناء وكيف سيبدو شكله بعد الاكتمال، راقني كثيراً وطلبت تأمله أكثر، سمحا لي بنظرة خاطفة، إثرها راحا يشرحان لي كل خط ومنحنى، فضلاً عن التفاصيل الكثيرة.

«للبدء لا بدّ من أربع ركائز أساسية، ترفع البناء العلوي في كل ركن ركيزة، أما إذا أصبحت الباحة جزءاً من المكان، فهذا المخطط سيتغير ليشمل المساحة كلها».

طويا الخريطة معاً وعادا يشرحان قضية الباحة، إنها النقطة المعلقة والتي بموجبها سيتغير شكل البناء.

«الباحة ليست جزءاً من جامع الولي الصالح، بل ألحقت به في ما بعد، وهي الفناء الخلفي، لكن لأهميتها تتازع ملكيتها جهتان، الآثار ودائرة الأوقاف».

تبدو التفاصيل التاريخية المرافقة لهذه الباحة من الضجر بحيث إن كلا الرجلين كفا عن التثرثرة بها.

«لا عليك، يا جاكوبيان، حصلت على موافقة دائرة الآثار وسنجد طريقة مع لصوص الدائرة الأخرى».

كل هذه الشروح والرحلة من البيت كانت من أجل أن أعلن موافقتي للبدء بالتنفيذ والإنشاء، ولأنني فوجئت بأن لقراري هذه الأهمية، فقد خوّلت أسطى طه بفعل ما يراه مناسباً، شرط...

توقفت، بهت طه لهذا التوقف، لكنه أمام زميله تلافى الموضوع بإطلاق ضحكة مجلجلة وإمساك يدينا والتوسط بيننا في المشي بعيداً عن الموقع، كان إعلاناً بانتهاء الاجتماع، تحادثا الاثنان معاً ثم

سَلِمَ الرجل الخبير مودعًا وعائدًا إلى سيارته.

أنا وطه نمشي في الحارات دون هدف، الصمت يَلْقُنَا وفي حلقه يقف التساؤل، أمعنت في الصمت  
إيذاءً له، في النهاية شعرت بالندم، مع ذلك بادر بنوع من الاستفسار المشوب بعتاب مرّ:

«ماذا كنت تريد القول؟».

لم يمهلني وقتًا للإجابة، أردف مغيرًا الدفة:

«أنت تعرف أن موافقتك تعني دفع تكاليف البناء والمواد و...».

«أعرف ومستعد، لكن..».

«لكن... ماذا؟».

«ما فائدة بناء قبر لامرأة غير موجودة».

كان يحكّ ذقنه بقوة.

«دلّني عليها، أو على حكايتها، سأدفع بطيب خاطر».

تحركت أصابعه من الذقن إلى فروة الرأس، صار يحكّ هناك، بدا لي كمن يقلّب بيضة على نار  
هادئة، لم يعلن عن شيء، لكنني طرقت الحديد ساخناً، فكان عليه أن يظل طويلاً يحكّ رأسه، ربما  
ستأخذه الرأفة بنا ويفتح البئر العميقة التي بداخله.

هند، منذ ليالٍ طوال، تجلس تحت قبة السماء تناقش فكرة بغاية التعقيد، ليس لديها معلومات يقينية، فهي نادرًا ما تقرأ الكتب أو تناقش أفكارًا مع الآخرين، منذ أخذها العمل في العطور لم يعد متسع من الوقت متاح للنظر بهذه القضايا، لكنها وبسبب طبيعة علاقتها بريان وجدت من المناسب أن تجلي فكرها، أو على الأقل تبلور فكرة بهذا الشأن، كي تكون على بينة من تصرفها.

تشعر أن الألفة التي رسخت بينهما طوال السنوات السبع، تحتمّ عليها في هذه الأيام- التحول إلى الرعاية الخاصة، بحيث لا يبدو غريبًا شخص نضج ثلاث عشرة سنة بالخارج، ثم وجد نفسه محشورًا عنوة في بيت آخر، تريده أن يحسّ بأنها كما كانت وجو البيت ذاته لم يتغير، عندما عاش به صبيًا، وإن كانت تشعر بحنق الأب بسبب العمل، لكنها هيأت الظروف كي لا يشعر بغربة، مثل امرئ عائد إلى أرض غريبة، لم يألّفها من قبل، تترك هذا وتتصرف بموجبه طيلة الأيام التالية لعودته.

لاحقًا تحوّلت الرعاية إلى نوع من الاهتمام بشؤونه الخاصة، لم تعد حريصة على راحته فقط، بل سعت لتوفر كل مستلزمات الهناء، الشعور بأن كل شيء ميسر، غسل الملابس، إعداد الطعام ومشاركته الهمة، لقد تفرغت كليًا لهذه المهمة، فلم تعد تلك الفتاة، ضمن ديدنها اليومي، تعدّ الطعام وتفكر بموضوع آخر، لقد حاولت التركيز بما يشتهي ويتمنى، حتى وإن لم يطلب عليها الاستتباط، معرفة ما يناسبه الآن.

الاهتمام انسحب من شؤون البيت إلى متابعة المشاوير اليومية، التي يقضيها خارج البيت، سواء في البحث عن الأم أو خروجه للتجول في الأسواق والمحلات.

ما زالت تذكر ذلك الصبي الذي يشتهي التجوال في الأزقة والحارات الضيقة والمرور على الأماكن القديمة، حرصت في البداية على مرافقته، خوفًا من الضياع في الأزقة وتعرضه لاعتداء، فهو في مظهره العام يبدو غريبًا ويرفض تغيير طبعه بأن يتأقلم مع الجو العام، على مرّ الوقت فسحت المجال لأن يخرج منفردًا، بعدما تطمئن لمسير خطه اليومي، هو بالمقابل كان يخبرها إلى أين سيذهب ومتى يعود.

القضية التي شكّلت معضلة، والتي باتت تؤرقها ولا تعرف مصادر تعينها على الحل، منذ أيام وكلما تصعد السطح، تمعن التفكير فيها.

«هل الرعاية والاهتمام يتحولان إلى محبة؟».

عند هذه النقطة تقف حائرة ولا تستطيع الجزم، إن كانت ستلج هذه البوابة، هي تخاف الغرق بهذا البحر الهائج، في الحقيقة إن البحر بداخلها، يرتطم بضلعها كل حين، وهي مترددة في مواصلة المشوار هذا، تتراجع وتبقى عند مرحلة الرعاية والاهتمام أم تمضي قدمًا؟

ثمة أكثر من نازع بداخلها، يدعوها إلى الدخول بقوة بهذه التجربة مع ريان، لكنها تتوقف كلما تتذكر طريقته وطبعه بالتصرف، ميكانيكية التعامل مع الأشياء التي جلبها من وراء الحدود

وصارت سمة لشخصه، قد يكون اندفاعها نحوه مبررًا بمقدار المودة والألفة التي رسخت بينهما، تتساءل: قد يكون ريان الآن ينظر إلى الوضع من زاوية أخرى، الزاوية الضيقة في الارتياح من الآخرين وعدم الاطمئنان بسهولة، بل عبر تجربة ودراسة يريد.

ستضع إشكالاتها موضع الاختبار في الفترة التالية، لا بدّ من تمحيص الأشياء بدقة، قبل المجازفة ودخول مضمار مظلم لا تعرف كنهه وعواقبه.

صباح اليوم قررا الخروج معًا، لا لهدف معين، بل للتسلية والمشى في بغداد القديمة، لقد أخبرها أمس برغبته وهي رحبت بسرعة، بعد لحظات شعرت بالندم لتسرعها بالاستجابة، بينما الحذر كان يدعوها لتقليب الموضوع على أوجهه قبل الموافقة، في ذاتها قالت إنها نقطة ليست جديرة بالاعتبار، ثم بدأت بالاستعداد للخروج، حدثها بالطريق عما يعاني، ثم أرق يأخذ بخناقها منذ العودة.

«بحانة الأقدار حذروني من سيارة مفخخة، مرافقة طويلة البقاء بالمدينة».

نقل هواجسه بنوع من الحيادية، ثم أردف بجديّة، حالما انتهى:

«هل تتوقعين شيئاً كهذا؟».

لم تستعجل الرد، برغم امتلاكها تصورًا عن هذا الوضع، حاولت أن تشرح الوضع الأمني للمدينة، كثرة انفجار السيارات في الطرقات، كل إنسان هنا موسوم بسيارة، ذات يوم ستنفجر عليه، لكنها تجاوزت كل هذه الشروح وخلصت إلى نتيجة: من يهاب هذا الوسواس، فلن يستطيع العيش في بغداد، لقد اعتادت الناس سوء الوضع الأمني، كيقوا حياتهم وكأن شيئاً لم يكن، إنه نوع من تخطي الألم في سبيل البحث عن الحياة.

«عليك أن لا تعير هذا الموضوع أهمية، فكلنا في الهوا سوى».

لم يقتنع، بيد أنه فضّل عدم الخوض مجدداً، اعتبر تصرفها نوعاً من النموذج الذي يجب الأخذ به، بعيداً عن التهويمات الغيبية، حاول أن يعبر لها عن الامتتان بيعت الطمأنينة في نفسه، مدّ ذراعه وشبكها منحرفاً باتجاه دائرة البريد السريع، ظلّ صامتاً فترة، يفكر بردّ الشكر لها بطريقة واضحة وجليّة، عند باب البريد قال:

«أنتظر رداً من صاحبي «كونديرا»، في باريس، على عينات العطور».

لم يستهوها الموضوع ولم تعلق، غاب لحظات بالداخل، وخرج يحمل رسالة إلكترونية، يلوح بها بيده، سارا نحو أقرب مقهى، استعدّ بشكل لائق للإدلاء بمعلوماته، التي جعلته مرحاً بما فيه الكفاية، بالدنو من وجهها وكأنه سيهمّ بتقبيلها فوراً أو خلال اللحظة القادمة، هي لم تجفل ولم تتراجع، بل ركّزت عينها في وجهه وبقيت تهمس بكلمات ناعمة لحبيب ينمو بداخلها.

«ثمّة شركة عالمية مهمة بتسويق بضاعتك بشكل كبير، سيدرّ عليك أرباحاً طائلة، وستصبحين مشهورة على مستوى العالم».

شعرت أن الموضوع لا يعنيه، وأن القبلة المنتظرة كانت أهم وأجدى، تراجعت خطوة واسترخت على مسند الكرسي.

- «اسمعي جيداً...».

انتابها التعب وهي تشرح الفائدة من استعمال العطور والطرق في استخدامها.

«إنهم ليسوا بحاجة إلى عطورنا، لديهم أنواع وأصناف شتى، يستعملونها للتجميل والزينة، ضحك الحياة هناك يدفعهم إلى الإفراط في استعمالها، لكن بالضرورة يختلف عن سبب استعمالنا نحن للعطور، نحن نريد أن نجمل الحياة، أن نجعلها مقبولة، وسط هذا الركام من الموت المجاني أو القرف، العطور بحياتنا مثل حاجة لتغطية خرابنا الداخلي، إنها ضرورية كي نرى الجمال يغلف الحياة، لا نراه لكننا نرغب بشدة بوجوده، على العكس من أهل الغرب».

الدفق المتواصل في حديثها ورنه الصوت، التي تجعل من مقاطع الحروف أشبه برنين أجراس، وسيلان المعرفة، جعلته ينظر باستغراب إلى رفيقة الصبا، ثمة امرأة أخرى أمامه تختلف، أو إنها تطورت لحد النضج واليقين، بما تقول وتفعل وتؤثر.

كان يستمع بانتباه، لم يستوعب وجهة النظر التي قبيلت، لكنه مال للصمت، ابتلع لسانه وشعر بغصة في حلقه، غصة لم تخطر بباله أن هند بهذا الوضوح والرسوخ في حياتها.

«تعال جاكوبيان، أحدثك عن أبيك، مزهر».

الأسطى طه يفجر مفاجأته، دون مقدمات يتخلى عن بئره العميقة، الدهشة أصابت الاثنين، هند أعلنت:

«عند سطح الدار نجعلها ليلة سمر».

لم يكن في نيّتي، أنا طه، التخلي عن حذري المشوب بالخوف، لكنني وجدت الشابين يتخبطان في متاهة ولن يصلا مهما بذلا من جهد، فضلاً عن أن البحث بحد ذاته غير مجدٍ، بما أعرف من حكاية «يارا».

في المساء انتظمت الجلسة، بعدما نسقت لها هند بشكل جيد، رشّت السطح بالماء فتطايرت الحرارة وصار ندياً، أنواع من العصائر جهزت وجلسة بمسند، يتكى على سياج السطح، مثل هذه الأمسيات ليست غريبة عني، فطالما كنا نتسامر، أنا وهند، هي تعيد يوميات ريان بعد سفره وأنا أشيد بأمه البارعة بكل شيء، الحكايات على مرّ الأيام انقرضت ولم تعد مجدّية، خاصة أننا بتلك المرحلة دخلنا في أتون نار حامية، حرب الطوائف التي اشتعلت في كل صوب.

تعرفت على أبيك في منطقة سدة الهندية، كان ذلك إبان بداية عقد الثمانينيات، كنت أعمل هناك على بناء واجهة لأحد شيوخ العشائر من «الكاشي الكربلائي» الأزرق، لقد جاء الشيخ خصيصاً إلى قنبر علي يطلب مشورتي في ما سيفعل بقصره، حين شرحت له الأنواع تشبث بي، أن أسافر إلى هناك، بأيّ مبلغ أطلب، أنا أحببت الفكرة، إذ لم يُتَح لي من قبل العمل في الأرياف وغالباً ما كان عملي ينصبّ على واجهة البنايات التراثية في المدين، سافرت معه في الليلة نفسها وفي الصباح اشترينا المواد وباشرت العمل، كان البيت يطل على جرف نهر سدة الهندية، مع بعض الارتفاع المشيد بالخرسانة المسلحة يبدو البيت وكأنه يطوف فوق صفحة المياه.

المساء التالي مرّ عليّ الشيخ، وطلب حضوري إلى حفل زفاف لأحد أقاربه، ولأني ضيف لا بدّ من الحضور والعشائر مشّت على إكرام الضيف، بكل سرور رحبت وتمنيت أن أختلط مع الأهالي، فأمامي كانوا يمرون وأنا في زحمة العمل، يلقون السلام بمودة، كل حين أترك العمل وألقت باتجاه من يلقي التحية، مجاملات لها وقع في القلب بتلك المناطق وتجمل الحياة.

في حفلة العرس -كالعادة- نحروا الخرفان وعلقوا الذبائح، وقدور رز العنبر تقوح برائحها الطيبة، بعد الوجبة تقدمت جوقة «الكاولية»، ثلاث فتيات جميلات، بشعر طويل، وثلاثة عازفين وامرأة سمينة، عرفت في ما بعد أنها المغنية وراعية الفرقة.

لم تكن أغاني العجر تثيرني، بل كنت أنف من سماعها، لا من سبب وجيه ولكنني تعودت على أغاني المدينة وأطرب عليها.

كل وصلة غنائية بعشر دقائق، ثم ترمي الفتيات المناديل على من يرغب، إن لم يوجد فعلى من

يرغبن به، كنت أراقب الحفلة وأستمع مع الحضور، في الوصلة الأخيرة رمت إحدى الفتيات مندليها نحوي، جلست بجواري وقالت:

«أتعرف مزهر؟».

كانت تشير إلى الطِّبَال، الرجل الحنطي الشكل والذي حين يبتسم يخلب اللب، في حضنه وعند طرف فخذة تستقر آلتة، «خشبة» صغيرة وصادحة بالأصوات.

«يريد أن يتعرف عليك».

«قولي له أن يمرّ غدًا، في قصر الشيخ الجديد، عند ضفة النهر».

في منتصف النهار كان يحمل صرة بيد وخشبته في اليد الأخرى، يمشي على استحياء، بيد أن عينيه تطوفان الأرجاء، رجل طويل ونحيف، لكنه رشيق بشكل لا يصدق، ينتعل حذاءً أنيقاً وبنطالاً من قماش أدكن وبلوزة تقارب لون البنطال وتتناسق معه، في سرّي كنت أتساءل: أحقاً هذا «كاولي»؟

اقترب، لم يسلم، فرش الصرة التي بيده، وبعد قليل عمّر مائدة من أكل، تفوح رائحته وبخاره، «برياني» ببهارات هندية ورز بلون الكركم وقطع لحم صغيرة مقطعة بطريقة متناسقة، تتمّ عن ذوق راقٍ، قال:

«جماعة «النور» أعدوا لك هذا الطعام».

نزلت مسرعاً، لم أسلم فقد أخذتني الرائحة الزكية، تذوّقت أول لقمة وقلت له:

«السلام عليك».

لم يردّ، أخرج من جيبه نايًا قصيرًا، عزف ألحانًا ناعسة، ثم استبدل الناي بواحد طويل وأنشد: «يا ليل الصب متى غده...»، أنا أستمرّ الطعام وكلي أذان صاغية لمعزوفاته.

«أتروق لك «الخشبّة»؟».

طبلة صغيرة ضمّتها إلى صدره ونقر مرة، وفي الثانية انطلقت الألحان تغرد، كأن طيور النهر تجمعت ورفرفت أجنحتها، تركت الطعام وأصغيت له، مشدودًا ومشدوّهًا من عزفه الذي يشبه أصواتًا تهبط من السماء فتتشرب الجسد، قال:

«حين أعزف أجلب فضاءات وأوطانًا بعيدة، أجعلها ترفرف مثل الأجنحة».

قلت له: «من أنت؟».

ترك كل شيء، تمدّد بجوار المائدة وجواري، وضع رجلًا فوق أخرى وسرح طويلًا في السماء المفتوحة فوقنا.

«جئت طالبًا العون».

«قل.. أنا عند يمنالك، عوناً».

روى حكاية أشبه بالخرافة، ربما على شاشة سينما نصدق أنها تحدث، لكن في الأرياف وفي مناطقنا المغلقة فلا تصدق أبداً، أخبرني أن ثمة فتاة هامت به، لاحقته بين القصبات وفي أطراف المدينة، في كل حفلة يجدها بجواره، وصل بها العشق لحدّ الطوفان، قال لها: سأ تزوجك، في اليوم التالي جاءت هاربة من أهلها، من مدينة النجف، عند مضارب العجر تسأل عنه، لم يتخل عنها، لكن أهل الفتاة صاروا يطلبون رأسها ورأسه، يقول عنها جميلة ومصنوعة من ضوء الشمس وتتوهج حين يلامسها، اسمها «نجمة الحسن».

«من منكما يعرف هذا الاسم، أو يوحى له بشيء؟».

هند ردت: «أظنه لامرأة «علوية»، اسم لا يثير زوابع».

«أليس الاسم يوحى... يقارب «غضبان الحسن»؟».

««عفية» جاكوبيان، أنت التقطها، الاسم الذي حذرتك منه، كلما تسمعه تهرب».

«بلى كان ذلك في أيام اختباء ريان في بيتنا، كنت أظنه «سعلوة»».

«لا تنسيا، سيكون لهذا الاسم إيقاع في حكاية «يارا»».

«ماذا فعلت مع الرجل، مزهر؟».

«نصحته أن يلّم «جوالاته» ويختبئ في بغداد، لن يجده أحد هناك لسعتها، وأنا الضامن له، من ذلك اليوم صرنا صديقين، من خلاله عرفت «يارا»».

بقيت حكاية العجري الهارب مع «علوية» طيّ الكتمان، لا أحد يذكرها وهما تعاهدا أن لا يكون لتلك الحادثة أثر بحياتهما، «نجمة» نسيت أصلها وعاشت عاشقة ومزهر لم يعد في بغداد من يذكره بجذره العجري، ما دام حنطي الشكل ورشيقاً بشكل مثير.

الذهاب إلى مضارب الغجر رحلة مضية، تتطلب الجهد والبحث عن المضمرة من الحكاية، تلك التي لا ترى عادة وتبقى مثل الجذوة، تتفاعل وتتسظى لاحقاً، لم أطلب من هند مرافقتي، فقد توقعت متاعب الطريق، برغم أنني لا أعرفها، «جوجل» في الشبكة العنكبوتية رسم مسار الرحلة وحدد المسافات والوقت، كنت لحظتها وأنا أقرأ الأرقام أحتّ هند على عدم المشاركة، فبرغم كل شيء، الذهاب بفتاة إلى مضارب متقلبة عند أطراف المدن يعد مخاطرة، لا مبرر لها، لكنها أصرت، باعتباري غريباً وربما الناس هناك أو في أثناء الرحلة يخلقون مشاكل لي، بنوع من الدلال قالت:

«ألا تريدني مرافقة في رحلة البحث عن جذور أبيك؟».

كان سؤالها منطقياً، يحمل في طياته نوعاً من العتب، باعتباري أستغني عن جهدها في مشوار كهذا، عند أول مكتب للسيارات استأجرت سيارة، أقودها بنفسي، هند اتخذت هيئة المتحضر منذ البداية، سوف نسلك طريقاً داخلياً، كان في ما مضى يشكّل حوض نهرٍ دجلة والفرات، لكنه اندثر بفعل التصحر وصارت المدن متباعدة عن خط سيره.

يتخذ الغجر من أطراف المدن مضارباً لهم، متقلبة عبر مساحات شاسعة من الأراضي، ما بين مدينتي العزيزية، في الجهة الشرقية لنهر دجلة، وصولاً إلى مدينة الديوانية التي تقع على إحدى خواصر الفرات.

لا أعرف أحداً هناك، ولم يدلني أسطى طه بعد بوجه ليلة أمس- على عنوان معين، عدا بعض الإشارات البسيطة، قد تقودني إلى بقية عائلة أبي، التي قال إن أصلها يسكن قريباً من نهر الفرات. لم يكن تعب الطريق بذوي بال، لكني طوال وقت الرحلة كنت أسأل هند إن كانت تود الاستراحة من عناء السفر، تردّ عليّ بأغنية الدلوعة شادية: «سوق على مهلك سوق، بكرة الدنيا تروق»، تسكت عن تكلمة الأغنية وأحياناً تنتقل إلى أغاني أخرى، من وراء المقود والاهتمام بحيثيات الطريق كنت أبتسم لها، نادراً ما أجري حديثاً جدياً، نتف نداولها في سبيل تزجيه الوقت والوصول إلى بيوت الغجر.

أبي من الشهرة بمكان، بحيث عندما نسأل أي رجل عابر، يبادر مباشرة بقص حكاية مقتله، منذ ثلاث عشرة سنة، لا أحزن على ما يقال ولا أقبل الرثاء الممزوج بالحسرة على شبابه، كنت أتلّهب لمعرفة إقامة بقية عائلته، أكثر من شخص توهم معرفة العنوان، كنا نواصل شق طريقنا باتجاه الديوانية.

أحد الرجال الذين يتبولون في الشارع العام، أكد أننا قد وصلنا، علينا الانتظار قليلاً ريثما يتمّ تبوله وسوف يأخذنا إلى المكان الصحيح، هند علقت بنكتة باذخة على طلبه وأنا ضحكت سرّاً، جلس الرجل في الكرسي الخلفي وأمر بأن انحرف من الشارع العام باتجاه اليسار، كانت أمامي أرض قفر وأشعة الشمس تسوطها بقسوة، توغلنا ربع ساعة في عمق التيه والفراغ، فقال:

«وصلنا».

ثمة قرية صغيرة، بيوتها من الطين، تتناثر بشكل عشوائي وتنتظم من الجهة الثانية على شارع مرشوش بالزفت الأسود، عند ثالث بيت طلب التوقف، ترجل قبلنا وطرق بابًا من الصفيح، من الداخل تعالت الأصوات والرجل ينظف حنجرته بسعال خفيف، دون أن يكلم أصحاب الدار، خرجت له شابة، ما إن رأت سيارة بيضاء متوقفة قرب الباب حتى صرخت:

«شرطة، بابا..».

عندها داهمهم الرجل مصححًا ما قالته الفتاة، كنا في السيارة ننتظر انفراج أزمة وقوفنا بسيارة بيضاء عند باب عجري في مكان ناءٍ، استغرق بعض الوقت التباحث في الداخل ثم خرج لنا صاحب الدار.

«تفضلًا».

بين إعداد الشاي والتيقن من هويتنا والريبة التي بدأت تتحسر رويدًا مضت ربع ساعة دون أن نتطرق إلى الغرض من الرحلة، الرجل كان حذرًا لحد اللعنة، كأنه يكتشف فينا الخبث والدهاء، أنا بالمقابل رجل عملي ولا أَرْضَى أن أكون موضع شكّ دون دراية، بادرت بقطع الحديث التافه السابق.

«جئت أسأل عمن يعرف والدي، مزهر الشادي».

«كان صاحبي، اشتغلنا معًا، في سدة الهندية وأطراف كربلاء والحلة، إلى أن رحل».

انفجرت أسارييري عندما ذكر منطقة سدة الهندية، اقتنعت أنني اهتديت إلى الطريق الموصل إلى المبتغى.

«ماذا تودّ معرفته؟».

«من بقي من أفراد العائلة؟.. الأقرباء...».

«نحن هنا، أقصد العجر، لا أقرباء من جهة الدم، كلنا أقرباء بعض، الإنسان فينا يعرف بعائلته فقط، أقصد الأم والأب والزوجة وبقية أفراد الأسرة، لن تجد لأبيك ابن خال، على سبيل المثال، أو ابن عم، كلنا إخوة، خارج إطار العائلة».

«حدثني عن أبي، أصله، جذره، شخصيته وتصرفاته».

تساءل باستتكار واستهجان:

«هل أنت ابن العلوية التي جلبت البلاء لنا؟».

«لا، ابن الأخرى».

أبوك من عجر الموائى، أولئك المنتقلون من ميناء إلى آخر، يضربون خيامهم بالقرب من المدن ذات الموائى، إنهم مثل بقية العجر، لكن اقتصوا بهذه الناحية، يختلفون عنا قليلًا في التصرفات

ونوعية الأغاني والرقص الذي يجيدون، كانوا بسرعة يندمجون بالسكان المحليين وسرعان ما يرددون أغانيهم ويحفظون رقصاتهم.

مزهري كان ينظر للأمر بشكل مغاير، فلم يعنيه أبدًا أنه ذو أصول غجرية، بل ينظر إلى أهله في تنقلاتهم بين المدن كجزء من نسيج الموائى الذي يتشكل، بما فيه من إرث وما ينقل إليه، تداخل يخلق عالمًا جديدًا، أكثر اتساعًا وقبولًا، كان يعدّ نفسه فضلًا عن صفاته الجسمانية- صانعًا لعوالم جديدة، تبحث الناس عنها في أنسها وطربها، كانت له المقدرة مع الواقع في التكيف وإبراز مهاراته.

أخبرني أبوك -ذات مرة- أن افتراء لحق بهم حين شاع بين أهالي البصرة بأنهم قدموا مع الجيش الإنجليزي، في الحقيقة كانوا هناك بزمان طويل قبيل مجيء القوات البريطانية ونزولها في البصرة، منهم تشكلت فرق عدة، ومنهم من أصبح مشهورًا في هذه الأوساط، ومنهم من حفظ ألحان أهل المدينة ومنهم من أضاف إليها.

«ما علاقتهم بـ«خشابة البصرة»؟»

«قبل هذا، أذكر أبائك كان يصرّ بأن «الخشبة» من ابتكارهم، إنهم أول من استعملها هناك، ومنها انتشرت في عموم البلاد».

«لكن.. يقال إن أصل الطبل الصغير من إفريقيا، من زنجبار».

رد مسرعًا وقد فرك فروة رأسه:

«ربما... هم يعملون في الموائى، بإحدى رحلاتهم جلبوها من زنجبار».

«كيف تثبت هذا؟».

«لا دليل، أبوك سمعها عن أبيه وجده، هكذا تتناقل الحكايات، لا تنس أن أفضل عازف لها كان أبوك».

«من بقي من أفراد أسرته الآن؟»

«يا حسرة، بعد مقتله الجميع هرب، هاجروا أو رحلوا إلى موائى أخرى، ربما أكثر حميمية».

لم يبق لنا إلا شكر الرجل والرحيل، لكنه أصرّ على الضيافة والمبيت عنده، في المساء سيحيي لنا حفلة، يعيد فيها مجد أبي، خاصة إجادته العزف على «الخشبة».

يا سادة، يا كرام، من على أسطح المنازل تروى الحكايات وتصعد إلى الفضاء، تبقى معلقة حتى يأتي ذات يوم- راو فينظمها في سرديات كبرى، تكتب تاريخنا النابض غير المزيف، وتكون حكاية «يارا» في القلب منها، فهذه المرأة المتفردة التي لم يُعرف لها مثيل، ظلت حلمًا متناسلاً لمن عرفها أو دنا منها، عالم من الجمال والأبهة والرقّة، أنوثة وشهوة، أصالة وجوهر، وقبلها إنسانة، لا يدانيها أحد بما أبدعت وفعلت.

كان يا ما كان، أنا طه، أمهر أسطى في صناعة واجهات البيوت والمحلات، كنت أسمع عنها وأنبهر، أُنشهى وأترجع، أحلم وأخاف أن أمسك حلمي، حتى حانت ساعة، ما بعدها ساعة، ولن تتكرر بتاريخ المدينة أبدًا، حينما كنت جالسًا في مقهى تجمع الفنانين، عند ركن من ساحة «عقبة بن نافع»، في حي «كعب سارة»، بمعية مزهر الشادي.

هي لحظات حتى دخل الضياء علينا، هالة من نور، بقوام عود البان وشعر كستنائي كخيوط الذهب، خلفها ضوء النهار يتراجع خجلًا تاركًا المجال لها، لها وحدها، لتضيء المقهى بجمالها ومشيتها، التي تشبه الغزال بنعومة كعوبه ورشاقة سيقانه، عند الباب وقفت، سبحان من صور وأبدع، الجالسون تركوا ثرثرتهم وهدقوا بهالة الضوء المشع، مثل البلهاء يتطلعون وذقونهم ترتخي إلى الأسفل.

لحظات أخرى واتخذت كرسيًا من الخشب جلسة لها، نصّدت ساقًا فوق ساق فبانّت ثنايا الجسد، مصقولة مثل عود بلوط، رمانه الساق تشبه قطعة بلور وبطة الساق مثل كرة من الماس، أما امتداد الساق فكان حقلًا من أزهار الجنة، ينحدر صوب الوديان وينابيع المياه العذبة.

ما زال الجميع يشعرون بالانبهار إلا مزهر، النقط خشبته وركض نحوها، لم يكن قد رآها من قبل، لكنه كما قال لاحقًا- أدرك في صميم قلبه أن الله بعث بتلك الساعة من السماء- إلى عباده المتعبين العطشى إلى الجمال- جوهرة. تربّع على الأرض، تحت قدميها، ونقر طبله الصغير، نقرة جحظت عيون الحاضرين من جدحة شرارتها، أعقبها بنقرة أقوى، ثم عزف مقطوعة، لم يسمعها الآخرون من قبل، كانت تحرك جماد الأرض وترفرف لها القلوب، من جلسنها الملوكية وتعالى أميرة هزت وسطها، ثم دندنت اللحن.

ليست امرأة ترقص، بل خيوط الضوء، حزمة من شعاع باهر تتمايل وتتلوى ثم تدور وتعود من جديد لفك اشتباكها، تمامًا كالمغزل وكرة الصوف، أحدهما يضاهي الثاني بدورانه، أشارت بيدها، مزهر النقط رغبتها فأعاد عزف اللحن ذاته بإيقاع آخر، صارت أجمل، تحولت خيوط الضوء إلى هالة عظيمة، تخطف الأبصار وهي تلاحق انبعاثه وتشكله، تدور وتتحرك بوسع مساحة ذراع، تتلاعب بضيق المساحة فتشعر أنها توسعها أو تقلصها بما تشاء، كنا نخاف سقوطها على الكرسي أو تعثرها بساق مزهر، أو مات ثانية فأعاد العازف مقطوعته بإيقاع ثالث، ويا إلهي ما أنزلت بهذا النهار من سمو وفتنة.. ويا إلهي، رحمتك بقلوب المتعبين من هذا الانبهار والشهد والانشداد.

كفّ مزهر كما أشرت، بقي جالسًا على الأرض، لا يحرك ساكنًا، مثل خادم ينتظر الأمر، أنهضته

وقبالتها صار يحرق، لم يتقوه المسكين، ربما بلع لسانه، في أثناء الرقص، فقد شعر أن لا معنى يقال بحضرة هذا الألق.

أنا المبهور والمأخوذ بكل جوانحي والمشدود إلى الرقص أولاً، وثانياً إلى مجالستها لصاحبي، وانتتي الجراءة بأن أنهض وأركض صوبها، حالما وصلت بلعت لساني أيضاً، جلست على كرسي ثانٍ، إلى اليمين من إشراقه وجهها، الذي يشبه البدر في كماله.

من منا يجرؤ على مخاطبة ربة الجمال بكلمة، فضّلنا السكوت والتطلع في الفتنة التي هبطت علينا، الشاطر من استطاع تحريك عينيه عن وجهها، إلى رقبتها مثلاً، ثمة تسمّر وانشداد وغوص في العمق، بحيث تبقى هنالك، أيّ حركة معناها مغادرة موطن الجمال، الذي لا يعوض، قالت له:

- «أحسنت، أنت ماهر بطبلك».

الرجل غاص بكرسيه، لا أعتقد قد بدأ البحث عن لسانه أنى انعقد، اتسعت ابتسامته وظل أبله، كما كان يطالعها.

- «إن شئت نعقد اتفاقاً».

عند ذلك بحركة لاإرادية- أفرد أصابعه العشرة وبصم على الطاولة، أطلقت ضحكة رنانة لكنها انسابت مثل الأمواج وشملت الجميع برذاذها المحيي لعظام الموتى.

«أن تعزف لي، بأيّ حفلة كانت، أجلس معك أيضاً عازف «سكسفون» وآخر للبرق، سنشكل فرقة، ما بعدها من فرقة».

كلماتها الأخيرة ممتلئة بجسارة وشموخ واعتزاز، الرجل رسم بصمته ثانية فوق الطاولة.

«كل هذا مقابل شرط...».

لا تتصرف كبنيت ذات عشرين عاماً، ولا تلوّح في عينها رعدة تردد أو وجل، بل تمضي قدماً، كأنها تقرأ في كتاب مفتوح، أنا الجالس قبالتها لم أبدأ بعد استيعاب تفاصيل المشهد، بما احتواه من طاولة منفردة، قريبة من الباب وتجلس فيها فتاة جميلة، واثنان يحلفان حولها، بقية المشهد يتمثل في عشر طاولات، تمتد بعمق القهوة، لم أنتبه لما حولي.

كنت أتمنى أن أكون مكان صاحبي الذي استأثر بالاهتمام وركزت حديثها معه، بتلك اللحظة اشتعلت النار في جوفي، نار عدم الفوز بهذه الفتاة ولو لمدة ساعة أقضيها بالحديث معها، حتى لو كان حواراً سمجاً.

«الشرط أن تدير أعمالتي، بمعنى مدير أعمال و...».

يا رب، افرجها على عبدك المسكين مزهر، أنا واثق أن قلبه سيتوقف، عما قريب.

«وأن تتزوجني».

مزهر أغمى عليه، ارتخت يدها على الكرسي وهدل رأسه فوق صدره، تمتم بكلمات مبهمة ثم غاب

عنا، عن الوجود بأسره.

رشّ عامل المقهى على وجهه ماء، فلم يصحّ، ضربت خدوده بطبّطبة خفيفة على الجانبين، فلم يصحّ، عندها أخرجت من حقيبتها قنينة عطر، نثرت بخاخًا سريعًا، فشعرنا كلنا -الجالسون في المقهى- أن المطر قد نزل، وبركات الله كثيرة هذا اليوم بأن ينزل مطره بصيف قانظ.

خرجنا من المقهى، بعد فترة وجوم، توسطت «يارا» المسافة ما بيني وبين مزهر، سارت بنا باتجاه كازينو «الطاحونة الحمراء».

«تلك هي أمك، يا جاكوبيان».

من كان يصدق ما حدث، لو أنني قررت ذات يوم أن أرويه، فلا أحد سيصدق، فتاة جميلة تجلس في طرف مقهى، ما إن أبصرها الطبال حتى أمسك بتلابيبها، كيف تأتي له إدراك طاقتها المضمرة؟ وكيف كانت هي على أتم الاستعداد للإعراب عن تلك الطاقة الكامنة، المخبأة في جسد جميل؟ لا أحد يدري، لكن ذلك ما جرى بتلك الساعة.

بالمقابل لم تك «يارا» ربان سفينة، تتفدّ الغرقى من البحر، حين أرادت الزواج من مزهر، لم تفكر بأن هذا الاقتران سيزيد الطين بلة، فلا هي تحمل الأوراق الثبوتية ولا مزهر، ببساطة كان الاقتران مدموعًا بعواطف جميلة، تدفقت بلحظة هاربة من الزمن، حينما رقصت على أنغامه، لقد كانت من السمو بحيث شعرت به قريبًا من القلب ويعرف كيف يجعل الجسد ينتشي بالرقص، هو الآخر كان مشدودًا إلى فتاة، رأى فيها عوالمه الغائبة، تلك التي يخلفها بكل ميناء والتي تجعل الناس تلتقي وترقص وفق طباعها، في مسراتها وأحزانها، إنها لحظة من التأجج وجد الاثنان نفسيهما فيها وقد أخذتهما إلى عوالم الذات الكامنة، التي يسعيان لانطلاقها.

لقد وضعت «بارا» نصب عينيها كازينو «الطاحونة الحمراء»، رفضت كل العروض المغربية التي تقدمت لها، تنتقي أحياناً سداً للرمق -كما تقول- ما تريد، وفق معيار خاص:

«أنا أصنع الجمال، لست راقصة جسد».

وتضيف بنوع من يقرأ ذاته أمام الآخرين:

«حالما أرقص تأتيني الأنوار، هابطة من السماء فأتريّ بضوئها، كمن يستحم».

كل حين تأخذنا نحن الاثنيّن -مزهر وأنا طه- باتجاه الطاحونة، تشرح طريقة عرضها، وماذا ستقدم من «وصلة»، نسمعها جيداً، نصغي بانتباه ونبهر من عقل فتاة تعي كل أنواع الفنون وأشكال الرقص، كانت تصرّ على تقديم الفن الراقى، ذلك الذي يتجسد بلوحات من الإبهار، لقطه أو عنوان حكاية، تومئ بها إلى ما يعتلج في النفس من مشاعر، الذات الدفينة، التي كنا لا نستطيع التصريح بها من العام والخاص.

في غرفة مدير الكازينو تنهض من مجلسها وتقدم لمحة عما كانت تحكي، جسد -ككتلة واحدة- يتحرك ويتميل، نحسّ به مثل نسمة تسري، أحياناً تعرق من شدة الانفعال، وغالباً ما كان يشرق وجهها، عند الحركات ذات الإيقاع الخاص والفاصلة في حركة الجسد، إنها تعي جيداً ما تفعل وتقرض سطوتها على نسق مخارج الجسد، بما فيه من فتنة ومران، المطاوعة على التشكيل المناسب لكل «وصلة»، المدير يضرب الطاولة، دلالة الإعجاب، ويظل يردد:

«سنفتح قريباً».

لم يكن يهمها التأخير، بل الإسراع في فتح أبواب الكازينو من جديد، إثر الإغلاق المؤقت عقب بدء الحرب، كانت ترى فيه المكان الملائم لإطلاق إمكاناتها. في السهرات العمومية، حين تطلب للرقص هناك، كانت ترى في الحاضرين هياكل خشبية، غير قادرة على الإحساس والتفاعل، من النادر أن ترقص من «كل قلبها»، بل كمن يؤدي وظيفة، مع ذلك كانت تبهر، يظل الجمهور يصفق لها طويلاً.

كانت ترى أن الناس منهكة من الحياة وشؤونها، بالذات في تلك المرحلة التي لم تكن الحرب قد خرجت عن روتينها، من الخراب اليومي، ترى أن صناعة الفرح ضرورية لمعادلة الكفة، ليس الترويح عن النفس كما كنا نجادل، إنما تصعيد جرعة الجمال، منطق خاص في تفسير الحياة تمتلك، بموجبه تتصرف مثل حكيمة كبيرة.

«تعالى، مُرّي، بعد أسبوع سيكون الافتتاح».

نقلت الخبر، كنا ننتظر موافقتها على تقديم «وصلة» بناذٍ راقٍ، افتتح مؤخرًا في بغداد، أو مأت برأسها علامة النفي وأعلنت خبر افتتاح كازينو «الطاحونة الحمراء»، بحلته الجديدة وإدارته الفنية، التي تعول كثيرًا على مديرها الفني، الذي تعلم وتدرّب في منتديات فرنسا، وجلب خصيصًا

للإشراف على العروض في الكازينو، كان يخبرها مرارًا:  
«أنت تعوضين عن الفرق الأجنبية».

يلمح إلى شهرة الكازينو السابقة قبيل الإغلاق الأخير، حيث كانت تفرق الاستعراضية لتقديم أعمالها من على مسرح «الطاحونة الحمراء». اتفق معها، في أثناء المرور المتكرر هناك، على توفير عرض ثابت لها، عشرين دقيقة، مرتين في الأسبوع، كل الإمكانيات التقنية تحت تصرفها، لم تطلب أكثر من شاشة بيضاء كخلفية للمسرح وجهاز عرض ملون.

بموجب اللوحة أو العنوان الذي تعرضه الشاشة، ترقص، مادتها العنوان وجسدها الطاقة التعبيرية، النماذج التي تعرضها جذابة كعناوين، لكنها تتحت الصخر، تفتته لتخرج لنا من ذلك العنوان رؤية ودلالات أخرى، تجعل الجمهور متلهفًا لما يفعله الجسد وبما ستؤول إليه اللوحة في النهاية.

أيامًا سعيدة ومفرحة عشناها، بالذات في ليلة الافتتاح ونحن نرى الناس تقف تصفيقًا بشكل متواصل، كان العرض مكثفًا، يحكي عن فتاة تنتظر حبيبها، عبر شباك البيت، في اللحظة الأخيرة يتشكل الشاب شيئًا فشيئًا، من منحوتات الانتظار صنعت لنا مراسلًا حربيًا كسرت كاميرته في المعارك، فحفظ الصور في مخيلته قهرًا.

يا الله من تلك اللحظة، لحظة ظهور وجه الجندي خلفها، ماذا فعلت «يارا»؟ كل جسد في الصالة شاركها بطريقة ما تلك الرعدة، الرعدة الخاطفة، وهي تستدير صوبه، تخرج من الشباك لتلتقي الحبيب الغائب.

بكيه، تالله دمعت عيوني وأنا أصفق بجنون، جنون الإبداع، الذي استمتعت به والذي خلقتة أمامنا بشراً، وقتها قال لها المدير العام على خشبة المسرح وأمام الجمهور الواقف:

«سيدتي، يا لك من روعة، أنت عضو بإدارة كازينو «الطاحونة الحمراء»».

لقد ضمنت «يارا» مكانتها في الوسط، لأكثر من عشر سنوات تالية لم تتعب أو تتوان، بالنشاط والحيوية نفسها ظلت عروضها متواصلة وجمهورها يزداد، عما سبق.

تلك السنوات مرت هائلة بحياتها وحياتة زوجها مزهر، إذ استطاعا تنظيم مسارهما بشكل مثمر، برغم وجود طرف ثالث لا علاقة له بالفن، «العلوية» التي كانت أشد محبة لهما، لم تشعر منذ اليوم الأول، عندما جمعتهما في بيت واحد، أن لها شريكة بزواج، بل سعت بأن تكون صديقة بقلب منفتح، قلب متيم في الحب، لا يعرف البغضاء والأنانية.

ظلت المرأتان متحابتين ومتعاونتين في كل شؤون الحياة، ذات يوم، حين أخبرني مزهر وكنت أزورهم كالعادة، قد جعلتا «العلوية» صندوق «أمين البصرة»، لم أصدق ولم أتوقع أن العلاقة ما بين الثلاثة بهذا النقاء، كانا يدخران الأموال عندها، يستشيرانها في شؤونهما العملية، تركا لها حرية التصرف في القضايا المنزلية، في بحبوحة يمدان لها الكثير والزائد من المصروف، وهي كمن يخاف حجم المسؤولية كانت تحصي كل شاردة وواردة من مشترياتها، خوفًا من الرقيب الداخلي، ذاتها التي تحمل سريرة الصفاء.

«هل أتبرع إلى جارنا، مشوه الحرب؟».

من أمانتها كانت تخبرهما، بما تفعل وتشتري، تقدم جردًا لم يطلباه، بقيمة الأموال المصروفة والمدخرة، أحيانًا يضحكان من دقتها، وأحيانًا ينفران من حرصها الشديد.

أنا المراقب البعيد، المطلع على تفاصيل الحياة، كنت أرى عن كثب تطور العلاقة، الرسوخ في المودة والانفتاح على الآخر بقلب أبيض، أحسد إن كان ثمة مثل هذا النقاء في عالم ضيق ومتهالك، وأتمنى أن لا تعصف الريح ذات يوم- بهذا التشكيل الرائع، لم أستغرب ولم أنقطع عن ذلك الثلاثي كل تلك السنوات، بقينا أصدقاء مخلصين وحقيقيين، في زمن أغبر.

«في هذه الفترة ولدت، أنا ريان».

«أي، نعم».

«وكان لي أمان، العلوية نجمة الحسن ويارا».

«وسميتك وقتها: ذا الحضنين».

«متى ولدت بالضبط؟».

«في منتصف هذه الفترة، تحديدًا قبل خمس سنوات من مجيء غضبان الحسن».

«علقت هند: «يا فرحة اللي ما تمت».

لم يكن أحد قد رأى غضبان الحسن من قبل، قيل إن حوّلًا في عينه اليسرى، والرجل ذو كلية واحدة وخصية واحدة، مختفتان من جانبه الأيسر، أخته «نجمة» كانت تتجنب الخوض بأيّ حديث عن عائلتها، بالذات عن أخيها هذا، تشعر بالاشمئزاز من مجرد ذكره، في النهاية تداري خجلًا وجهها عما يذكر.

صولاته وجولاته صارت تردّ تباعًا إلى بغداد، لقد فاقت شهرته، بحيث تعدت مدينة النجف ولا بدّ من توقع وصوله بأيّ وقت، الأسرة من باب الاحتياط حتمت على الأخت عدم الخروج نهائيًا من البيت، حتى تتجلي الصورة، مزهر كان منذ فترة قد غير اسمه وصار يعرف بالوسط الفني باسم مركب.

منذ فترة وجيزة صدر قرار بتطبيق الحملة الإيمانية، التي لخصها أحد ظرفاء المقهى بعبارة وجيزة: «حين تفلس ابحث في دفاترك القديمة»، كانت تسير تحت شعار: العودة إلى الأصول وتطبيق سيرة الأولين، التي تعني بالضرورة إغلاق كل محلات اللهو في عموم البلاد، مقاهٍ ونوادٍ ومحلات بيع المشروبات، مما استدعى لأن تسدّ شوارع كاملة في المدينة، وباتت تظلم مبكرة والشوارع ليلاً خالية من الرواد.

مقهى تجمع الفنانين، في كمب سارة، شملها الحظر فأغلق صاحبها الباب أيامًا عدة، ثم أعد نفسه كمصدر رزق أن يبيع السجائر، كان يشكو قلة الدخل، فاقترحت، أنا أسطى طه، بأن يتولى بيع المواد الغذائية المحظورة أو النادرة في السوق، لعله بهذه الطريقة يقاوم ضنك الحياة.

نشئت المعارف والأصدقاء ينير الحسرة والألم، وصارت مواعيد اللقاء مهربة بنوع من السرية وكأنا نداول منشورًا سرّيًا، البحث عن رؤية صديق قديم يمثل مخاطرة كبرى، خاصة إذا سألت عنه أو عن عنوان جديد انتقل إليه غب الحملة.

بقيت الطاحونة الحمراء تقاوم كآخر المحلات، صاحبها بعلاقاته الشخصية استطاع الحصول على إذن خاص باستثنائه من إجراءات الحملة الإيمانية، لكن العروض لم تعد كما كانت، «يارا» كانت تجازف بالحضور لبرنامجها المحدد سلفًا، كمن يتسلل خلسة، تدخل من الباب الخلفي وتهرب من هنالك أيضًا، بواسطة سيارة أجرة، خصصتها لهذه المهمة، لم تعد بذات الحماس، كانت تشعر أن الأمر قد قضي، لذا اقترحت على مزهر، تقاديًا لشراسة الحملة، القيام برحلة سياحية ريثما تهدأ الأوضاع.

بدلنا نحن الأصدقاء- كل ما هو متاح في سبيل إصدار جوازات سفر ولم نفلح، شعرا بخيبة أمل مريرة، بالذات «يارا»، إذ كانت تتصور أن سمعتها سوف تفتح الأبواب، ومريدها من الجمهور -فيهم شخصيات مرموقة- لا بدّ أن يمدوا يد المساعدة، لأول مرة أراها مكسورة خاطر، تشعر باندهار وقلة حيلة في تجاوز عقبة عدم امتلاكها الأوراق الثبوتية، عندها تتذكر مسيرة أمها وجدتها في مستودعات الجيش التي قادت إلى هذه الكارثة، تنتابها المرارة وتشعرها بالضياع.

عقبة كهذه لن يحلها إلا قرار خاص من الرئاسة، وهي لم تكن قد وصلت بعلاقتها إلى هذا المستوى، كانت تتجنب عمدًا رجال صنع القرار، بل تحملهم ما يجري من ويلات وتحاول، كردة فعل، أن تصنع الفرح للناس وإن الأيام ستثمر، ذات مرة، كما الأشجار.

«لا حلّ إذن، نحن، أنا وأنت يا مزهر، لسنا أبناء هذه الأرض!!».

ثمة وجع بما تقول، حين تصل بها المشاعر إلى هذا المنحنى، تعزل العالم، تغلق باب الغرفة وتعتصم عن الطعام يومًا أو يومين، لكنها تخرج أشدّ عزيمة في مجابهة الحياة، وكأن فكرها اتّقد بشرارة، تجنبها الطلب وتسول المسؤولين عن حقها بالحياة، في المرة الأخيرة كان قرارها صريحًا:

«من يدلّني على هذا الأعور، غضبان الحسن؟».

توقعت إيجاد مدخل أو حلّ من خلاله، شريكها نجمة بكت بين يديها وترجتها أن لا تقدم على هذه الخطوة، ستجر مشاكل كثيرة، وأملتها:

«لا بدّ أن الله سيقبلها ذات يوم، عندها ستتالين الجنسية مثل أيّ إنسان».

أمام بكاء المرأة تخلّت عن الفكرة، بعدها عدّته تهورًا أن تذهب بنفسها إلى أحول وجزوه الأيسر خالي الوفاض من كلية وخصية، وربما أشياء أخرى، فهقهت ثم ضحكت على نفسها، من رغبتها بروية أعور.

غضبان الحسن تمّ نقله، بعد جدارته وصولاته في مضارب العجر، على طوال مدن الحلة وكربلاء والنجف، رُقي كمشرف على تطبيق الحملة الإيمانية على قاطع الرصافة كلها من بغداد، كان مقتنعًا تمامًا أن المسارب ستقوده إلى أخته الهاربة، فما زال يطلب رأسها منذ هروبها مع عجري قبل سنوات طوال.

في عمله لم يفد الحملات التفتيشية بنفسه، بل يضع الخطة للانقضاض على مكان لهو، يسلمها إلى أشرس معاونيه، مع توصية بأن لا يرحم أحدًا، أما هو فكان طوال الوقت يدقق في سجلات أو يطلب سجلًا جديدًا للسكان، بين الأسماء لا بدّ أن يجد الأخت، عندها سيقود الحملة بنفسه، أقسم ذات مرة عند رأس أبيه وقد حضرت المنية، أن يعريها ويقطع أجزاءها، كل عضو يرميه إلى كلب.

أمام الناس في النجف أحضر فتاة جميلة من مضارب العجر وادّعى -بعدهم جمعهم في محلته- أن أخته الهاربة حظي بها وعليهم أن يشهدوا عقابها، صبّ البنزين على الفتاة وأشعل فيها عود ثقاب، الفتاة لم تكن تدري لم يجري لها هذا، ماتت مرعوبة ومن غير صراخ، تحوّلت في النهاية إلى كومة رماد.

طلب من أحد مساعديه البحث عن عنوان الراقصة المشهورة، كان قد سمع الحكايات عن جمالها ورقصها وقرر أن يحظى بها، وصلة رقص خاصة تؤديها مقابل الترخيص لها بالعمل في الأماكن المنزوية، في النوادي الخاصة لأصحاب المكانة والرفعة بإدارة الشؤون العامة.

مع نفسه يشعر أنها خدمة جلييلة تقدم على طبق من الذهب، أما الرقصة الخاصة فلن تكلفها شيئاً مقابل تجنب شروره، المساعد حين رآها، بعدما طرق باب البيت، كفر بدينه.

«امرأة بهذا الجمال تبقى حبيسة الدار».

أراد تجريب حظه أولاً، قال لها:

«أنا غضبان الحسن».

«لكنك لست أعور».

أدرك مقدار شرستها من طريقة الرد، عرض عليها أن تأتي إلى مكتب تنسيقية حملة الإيمان، الكائن قرب السدة، بذل جهداً في وصف المكان وهو يتلعثم من هول الجمال، الذي يدانيه ويشم عطره عن قرب، قالت بصلف:

«لن أذهب لأحد، لقد اعتزلت الفن».

كانت تنوي العودة إلى صالة البيت، بعدما أعربت بيدها عن حركة، تعبر عن الاشمزاز.

«لكنه أمر السيد...».

هو حائر في ما سيفعل، وهي لا تتيح مجالاً لتكملة كلامه أو الوقوف مقابله للحوار.

«قل لمديرك الأعور، إن «يارا» ليست بضاعة، هيا اخرج».

أنا وزوجها وشريكها في الغرفة الأخرى كنا نسمع المحادثة، شعرنا ساعتها أن الأيام السوداء قد حلت، ولا محالة تتبع نتائجها.

أقسم بالله وأنا أروي لكما من على سطح الدار، يا هند وجاكوبيان، حكاية «يارا» بأمانة، إن هذه المرأة تمتلك من القوة والعزيمة ما ليس لدى الآخرين.

ذات يوم طرق الباب، ثم تم اقتحام البيت عنوة، غضبان الحسن في المقدمة، يتبعه رهط من ذي الملابس المرقطة، كان كل شيء ينذر باشتداد حملة الإيمان، الجميع متخوف مما يجري ويضع يده على قلبه، لم يكن الخوف من توقف المنتديات والحياة، فذلك تحصيل حاصل لما جرى خلال الشهر الأول من الأزمة، بل اتساعها لتشمل الاعتقال، ما لم يكن في الحسبان قد وقع، من يتم اقتياده إلى التحقيق، يغيب ولا يُسمع عنه خبر أو ربما يعود مشوهًا، هنا نقطة الداء الموحجة، التي جعلت نساء الوسط الفني يهرين بسرعة، ولم تعد هناك عنهن أخبار تتناقل، لقد أمست المدينة أشبه بجثة، يتم سحلها كل يوم ويعاد دفنها مجددًا.

غضبان الأعور مثل ديك منفوش، دفع الباب بجزمته العسكرية، مما أثار الرعب في الجميع، كانت هي عند كرسي من البلاستيك تتخذ من طرف الحوش مجلسًا، كأنها تتوقع شيئًا من هذا، لم تنهض من مكانها، لقد امتلأ صحن الدار بعدد كبير من الحرس الخاص، كانت تنتظر، تنتظر من يبادر.

خرج من بين الصفوف الأمامية، الأسلحة على الأكتاف، والأصوات العالية تملأنا ضجيجًا، فسحوا له الطريق فتقدم، صار الأول الذي تواجهه بوجه من ورق، خالٍ من أي تعبير، حين رآها خرّ جاثيًا، سجد أمامها، ثوان معدودة غير كافية لمتابعة المشهد، بيد أنه كان جليًا، الرجل بكل العنف الذي بداخله تحول إلى أخرق.

أنا أقف مشدوهًا، نجمة ومزهر هربا إلى عمق الدار، غضبان لم ير أحدًا، إلا إلهًا، وجب السجود له، البهرجة السريعة من استعراض القوة انسحبت إلى الخلف يخطون أرجلهم أنواع من الاندحار، بعد قليل صار الصحن فارغًا، إلا من امرأة، تجلس على كرسيها ورجل يجثو على ركبتيه.

أنا ما زلت أراقب، من طرف خفي، المنظر، سحقتي برودها، كأنها من عالم آخر نهضت، دارت حوله بما يشبه الطوفان على كتلة من حجارة مكومة، قليلاً ما كانت قدمها تصطمم بالكتلة، لكنها ما إن انتهت حتى دفعت قدمها دفعة بأنفة وكبرياء واضحين، تريد أن تشمخ، ليس على المرء المكوّم عند قدميها، بل للتأكد من أن ثمة حركة وروحًا فيها، دخلت إلى الصالة وجلبت كرسيًا آخر.

تبدو متعمدة أن تجلسه على كرسي مكسور، بثلاثة قوائم، استغربت من وجود هذه الخردة في بيت أنيق ومرتب بشكل جميل، لا أعتقد أنها كسرت قائمة الكرسي الرابعة، هذا مستحيل.

الرجل حاول النهوض، مرّات عدة يحاول، لكن جسمه اعتاد الجثو، بعدها حاول التوازن فوق الكرسي العتيق، وجد حلاً بأن جلس على طرفه وتركه ثقله بعيدًا عن القائمة المكسورة.

أيهما ينتظر الآخر للبدء بالحوار؟ هينتها وجمودها لا تدلل أنها مستعجلة الحديث، هو الآخر يبدو مستعدًا للبقاء متمسراً، ينظر إليها ساعات وربما أيامًا، يمرّ الوقت وأنا أغلي منتظرًا نهاية المشهد أو ما ستسفر عنه المواجهة.

«أنا طوع أمرك، خادمًا أو عبدًا».

«بكل شيء؟».

«بكل شيء».

علا صوتها أكثر مما تعودنا نحن على رتم الانسيابية في كلامها وهدوئها، نادت:

«يا علوية..... تعالي».

كأن الأرض انشقت، كانت العلوية تتمنى أن تبلعها الأرض ولا ترى أخاها، تدفع نفسها خطوة وتراجع مرتجفة خطوات، مزهر يدفعها إلى الأمام وهي مثل الحرن لا تخطو، اقتربا من زاويتي التي أختبئ فيها، وانتني الشجاعة بسحب العلوية من يدها ودفعها صوبهما، تكاد تلامس أخاها، رآها فانفرج وجهه عن ابتسامة عريضة.

«كن رجلاً، لا ندلاً».

مع صفعه قوية، رنّت في أذني مثل دويّ انفجار، العلوية الخائفة بأول ردّ فعل لها تصفع أخاها، فعلاً أن المعجزات تحدث أحياناً، لكن ليس بهذا الشكل، كيف امتلكت الشجاعة وتحولت من الخوف إلى القوة لتصفع من ظل يطاردها سنينا؟!!

كأن «يارا» همست بكلمة بأذن نجمة، أنا رأيت إشارة من يدها ولم أسمع كلاماً، تملكها جرعة زائدة من الشجاعة فمسكت أخاها من مخنقه، صارت الرقبة وياقة القميص بين كمامة الأصابع، لم تقوَ على حمله، دفعته بقوة ليرتطم بالحائط وهي تلاحقه وقبضتها تشدد على الرقبة.

«كنت تبيع الرجولة، وها أنت خانع، ذليل».

مثل أم تؤنب طفلها وقد ارتكب حماقة كبرى، ظل ساكناً وساكنًا بين أصابعها، عنفته بما يشفي غلها، طوال تلك السنوات من القهر والتخفي والخوف، تركته وعادت من حيث جاءت، لم تلتفت صوب يارا ولم تتهامس المرأتان بشيء، لكن يارا وبّختها، بعدما بصقت باتجاه أخيها.

«عيب، هو ضيفنا».

عندئذ تبدل الموقف كلياً، من دراما ساخنة إلى موقف يشبه برودة اللقاءات الرسمية، طلبت له شيئاً وأمرتني بالاقتراب، طوال الوقت لم تلتفت صوب زاويتي، فكيف عرفت بي أراقب من هنالك؟

«يا أسطى، غضبان يتغدى معنا، اصرف شلته من الباب».

حرنّت نجمة أن تطبخ، فما زال جسدها يهتز من شدة الانفعال، من إزالة الخوف أم من الخوف المترسب سنوات، لا يهمها ذلك، إذ أعلنت عدم القدرة على الوقوف.

«أنتما رجال، الأقوى على المجابهة، اطبخا له».

كاد مزهر يفهقه لكلماتها فلم يقوَ، إلا التحرك مثل آلة وأنا أسأله عن أدوات المطبخ والمواد، نحن نحضر العدة وثمة من يزحف، مثل جرد مقطوع الذيل، أبصر مزهر جانباً منه فهرب، بعدها أطلّ

من فتحة باب المطبخ السفلية، متوسلاً:

«فدوه، أنا أخوك، دعيتها تنظر بحالي».

غلى الدم في عروق نجمة:

«صه، اغرب عن وجهي».

لم يفعل، كان ذليلاً لحد البكاء، توسل ثم حضن يدي أخته، يقبلهما بما يشبه التوسل:

«فدوه... فدوه».

عندها أدركنا اللعبة التي مارسها يارا، كانت تريده منكسراً، يتوسل نجمة الحسن.

«اطلب الصفح منها».

عند الباب كالطود تقف، تأمره وهو عند الأرض يجثو، كلما سمع صوتها.

«سامحيني أختاه... عفا الله عما سلف».

كلنا، بما فينا يارا، وللأمانة لم نكن نصدق أن الذي جرى كان بهذه الصيغة، غضبان الحسن أضحى خرقة بالية، بيد امرأة، تعرف ما تريد، ولا مانع لديها أن تكون شرسة عند الحاجة.

«الأحداث تلوكنا بهذا البلد، لن نقدر على صياغة حياتنا، رغباتنا وأحلامنا، بل إن الوقائع تتحكم بمصائرنا، إنها معادلة صعبة، لكنه الواقع السيئ».

كانت «يارا» تؤشر إلى المرحلة القادمة، بنوع من الأسى والحزن تعلن عن التفاصيل القادمة، يبدو أنها اتخذت قرارها بما ستعمل، بعدما سدّت المنافذ، وأصبحت المدينة خاوية، بلا روح تسري فيها، بما يشبه الموت كانت الحياة تجري مملّة وقانطة، الجميع في الدوامة انخرط، مجبرًا أو مقبلًا لكنه صار جزءًا من عالم آخر، غير ذلك الذي كان يظلل المدينة ويجعلها حيوية وبراقة، بما يشبه الكرنفال.

البيت الفني، الذي كانت تصدح فيه الموسيقى والألحان والرقص، اتخذ قرارًا بتحويله إلى مصنع للبسطرمة، انحشر ساكنوه في الغرفتين الأخيرتين للسكن، البقية تحول خلال أيام، تحت إشراف «يارا» إلى مصنع، الحوش تمّ تغليفه وصار أشبه بالجمالون، مخازن للبضاعة، ريثما يتم توزيعها على المحلات.

فُسّم العمل، كل حسب طاقته، كانت حصة نجمة أن تتولى الشؤون المنزلية والإدارة المالية للمشروع، مزهر أصبح المشرف على العمال والصناعة، «يارا» تمّ اختيارها، كونها صاحبة الفكرة ولديها الدراية في صناعة المنتج، خبيرة، تعدّ الخلطات وتتذوقها، تعدّل أو تغيّر، تحت شعار جودة المنتج وحسن تسويقه، أناطه، في المراحل الأولى، صرت مسؤولة عن شراء المواد الأولية، أتسوقها من المحلات العامة، خاصة المشهورة، مثل سوق حنون وأسواق الصدرية، يوميًا أجري كشف حساب مع «علوية» بقيمة المشتريات، المتبقي من المال أعيده إلى الصندوق، لكنني في مرحلة لاحقة تمردت على هذا النظام وأعلنت انسحابي، بعدما أصبح المشروع مستقرًا وخلق له زبائن دائمين.

كانت الحسرة تأكل قلبي، أن أرى هذه الأسرة تبتعد شيئًا فشيئًا عن أحلامها وطموحاتها وتتساق إلى عالم آخر، ليس قريبًا أو من اهتماماتها، أراعي أن المدينة كلها قد دخلت بالتحول، بأشكال مختلفة، بيد أنها جميعًا تؤشر إلى الانحدار المريع الذي قادتنا الظروف إليه.

«إنه نوع من اغتصاب الذات».

قالت لي «يارا» وأنا أعلن انسحابي النهائي، أكدت لها بأنني سأبقى الصديق للعائلة لكن بعيدًا عما يفعلون، إذ وجدت نفسي أختنق بروائح وأعمال تشعرني بالضيق والضنك.

«أظن أن أعمالك بالعمارة والبناء ستبقى تحت متناول يدك؟ لا يا عزيزي، الانحدار سريع وشمل كل مناحي الحياة».

أعطتني مبلغًا من المال يفوق خدماتي، كانت بتلك المرحلة قد وجدت ثلاثة محلات لتصريف البضاعة، مجرد ذهابها كان كافيًا بفتح الآفاق، فلم يبادر أحد ممن مرّت عليهم وعرضت «البسطرمة» برفض التعاون، كان يعده مكسبًا ومصدرًا للرزق عزّ في أيام المحنة.

صاحب مقهى تجمع الفنانين في منطقة الأرمن كان أول زبون، بعدما أغلق المقهى فترة، ثم حوّلها إلى كشك بيع السجائر، الثاني كان قصاباً مشهوراً في سوق حنون الكبير، قدّم لها عرضاً مغرياً، مقابل المصارين التي تشتريها يأخذ البسطرمة ويبيعها هو، بشرط أن لا تزود غيره لمسافة واحد كيلو، محيط دائرة، الثالث وجدته بزواية بجوار محلات «أورزدي باك» بشارع الرشيد، أبدى الاستعداد لأن يحوّل محل الملابس النسائية إلى محل لبيع البسطرمة الأرمنية.

بوتيرة المحموم سارت الأمور، برغم مضايقات غضبان الحسن وتدخله، كان يسكت حين يعلم بمقدار وجودة المصنوع، الذي غزا السوق بما يشبه الخرافة، أحياناً يعترض على المرأة الراقصة وتحولها، بثنيها وجرها للعودة إلى الفن والرقص.

أكثر من إشاعة ساعدت بانتشار مبيعات البسطرمة، بعضها رُوّج له بشكل متقن، وبعضه الآخر خلفته الناس، على شكل حكايات متداولة، سرعان ما تنتقل بسهولة من شخص إلى آخر، من المفيد أن «يارا» لم تذكر إطلاقاً أنها الراقصة الشهيرة، بل أعادت إلى الأذهان جذرها الأول، الأجداد القدامى في ذرى أرمينيا، الذين كانوا يدخرون منتجات الصيف إلى الشتاء، وإن البسطرمة كانت غذاءهم الأساسي أيام البرد، مطلق الإشاعة لم يراع أن بغداد لا برد فيها، والناس لم تعد تدخر شيئاً لأيام الموسم القادم، بالكفاف يعيشون ويتدبرون أمرهم، لكن الإشاعة سرت بسرعة وتسبق نزول البضاعة، برغم ما فيها من خطأ فادح من ناحية الزمان أو المكان.

«يارا» سعيدة بتذكرها طريقة الصنع وتفتخر بأمرها وجدتها، حينما كنّ رهائن محبس الجيش في «شهربان»، كنّ منتجات للبضاعة نفسها، سمعت الكثير عن تلك الشطارة، عندما استطاعت امرأتان غريبتان العيش والصبر، ثماني سنوات، في ظلال الإهمال والحرمان، دقة الصناعة تأتي من حرصها على النجاح، نوعية العمل جاءت عن طريق تذكر أحاديث الجدة وهي تروي حكايتها، تقول لزوجها مزهر دائماً:

«الحياة بنت كلب، برغم قساوتها تبتكر أدواتها على المقاومة والاستمرارية».

يجلسان أحياناً، يجدون بعض الوقت المستقطع من زحمة الشغل، يتحدثون بذكرياتهم أيام العز الماضية، وكيف كان الفرح يغلف حياتهم، بالسخرية يدور الحديث، وغالباً ما يكون بالحسرة، هي نوع من المواساة للذات، بدلاً من جلدتها، كقبول بالأمر الواقع والتكيف معه، لحين ما يفرجها الله، كما تردد «نجمة الحسن» دائماً وهي على يقين أن الأحوال لا بدّ أن تتقلب ذات يوم، تدل على ذلك بمقدار انقلاب أخيها غضبان، من طالب لدمها إلى خرقة بالية، حديث الثأر يحاولون عدم الخوض به.

مزهر عنوة يجرحهم، يسرق من أوقات العمل بعض اللحظات، عندما يخرج خشبته ويبدأ العزف، العمال يبتسمون وهو يندمج مع آلهة وينسى كل ما يحيطه، تتركه المرأتان بعض الوقت، إن راق لهن وعنّ عليهن الحنين إلى الماضي مضوا إلى تلك الأحاديث الجانبية، أو ينال توبيخاً من «علوية»، بتركه العمل وعدم مراعاة الوضع.

ليس من السهولة القبول بأمر الواقع، روح التمرد والابتكار حاضرة لديهم، بالذات يارا، وبرغم

ميل علوية إلى السكينة وانتظار فرج الله، لكن «يارا» تتشاطر مرات بمقترح جديد، يخرج العائلة من الدوامة، بيد أن الأمنيات تختلق، تضيع جرّاء الاختناق الذي يكتنف الحياة يومياً.

أحياناً يصبح الحلم أمنية، على جناحيه تسافر النفوس إلى المشتهى، ذلك الأفق البعيد والصعب، الرابض وراء السور، يشرّعون أيديهم في محاولة للإمساك به.

كلُّ من الثلاثي غير سعيد، يدرك عنق الزجاجة الذي دخلوا فيه، فالأهوال كانت تدفعهم قسرًا إلى الضيق والأمكنة الخائفة، التي خيّم منذ بدء الحملة ونقلتها العدوى إلى حياة الناس، مسراتهم وأفراحهم، للخروج من ورطة كهذه لا تجد النفس إلا السفر عبر الخيالات إلى ممالك الأمنيات، تلك التي يتمنون قطفها، قبل أن يذهب العمر سدى، لكن ظلال التعب ترسم سوادًا، علامة عن القرف، عما يجري ويفتل الأحلام.

ليس ثمة مندوحة بأن يمضي الزمن بهذه الوتيرة والترقب، حدوث معجزة ما، تفلح الدوامة التي تأخذ بخناقهم، وتنبدل الأحوال، هذه الأمنية بدأت تثقل ذاتهم، تشعرهم بأن الزمن يجري بطيئاً وأن لا شيء يلوح في الأفق، برغم تأكيدات «نجمة الحسن» بأن انقلاب الله أت لا محالة.

على وشك الوصول إلى نهاية حياة «يارا»، أقصد ما أعرفه من الحكاية، لقد قصصت عليكما، بما فيه الكفاية، لتعرفا أي حياة مضطربة عاشتها هذه العائلة، كل القصص السابق كان سردًا للحكايات التي تطفو على السطح، بمعنى الأحداث اليومية التي كنا نمر بها، لكن ثمة أشياء تعتمر في العمق ولا تظهر إلا وقت الشدائد.

لم أكن مقتنعًا بما آلت إليه الأمور، ولم أكن راضيًا بسير الأحداث، بداخلي أشعر أن المرأة مثلي، تبصر ما تحت السطح، لكنها تتجنب المواجهة، ربما تعبت بحياتها ولم تعد تقوى على خوض غمار بحور جديدة، أو ربما تهادن قليلًا، لعل الأحوال تؤدي إلى العواقب السليمة، بما يسمى حسن العاقبة.

من يقيم تلك المرحلة يجد أن فارسها المغوار كان غضبان الحسن، الرجل صار حقيقة بحياة الأسرة، واقع فرض نفسه، هو اختار الطريق الناعم عن قصد مسبق، من بوابة «يارا» وجمالها تعلق بأهداب الحكاية، وبات، سواء أدركوا أم لا، الرجل علامة فارقة.

لا أحد حسب عدم سؤاله المباشر عن مزهر، غض الطرف كان نية مبيتة لاصطياد الرجل، كي يشفي غليل الثأر المتأجج بداخله سنوات، لقد تصالح مع أخته وأبقى على عداوته مع مزهر، كنا ندرك هذه الحقيقة، بوقتها النسوة أشعن، تداركًا للوضع المعقد، أن العجزي نكث بهن وهرب، إنها مثل عمليات الرشق لتسوية الأمور الآنية، لكن تحت السطح تجري دماء حارة، كانت تقور وتبحث لها عن منفذ.

أنا شعرت بالخطر، حينما استوقفني مرات عدة، قبل الوصول إلى بيت «يارا»، لم يكن ساذجًا وهو يطرح عليّ أسئلة، ما نزلت بهن آية، غير اللف والدوران، يود أن يستشف ما يرغب من معلومات، المواجهة الأخيرة بيننا كانت صبيحة يوم انسحابي من مشروع البسطرمة، كان من الخبث بحيث حفر في القضايا الراكدة، أمامي يبدو الرجل يبحث عن مزهر، غريمه المتخفي، يسأل عن مدى الانسجام فيما لو أنه اغتصب «يارا»، أبدًا لم يكن ساذجًا، بل يمتلك من العهر بما يعادل الخبث بداخله.

أعرف أن له يدًا بتحسين مبيعات المصنع، وأعرف أن عموم الناس بدأت تتجنب الراقصة الجميلة، وأعرف أن سباته تجاه أخته مثل نوم دب في فصل البرد، وأعرف أنه وراء «يارا» يسعى إلى ما هو أبعد من أنفه، ألمس هذه الأشياء، لكني لا أراها، حين أحدث السيدة بهواجسي كانت ليست العارفة بل المدركة لنياته- لا تصرّح بما تود فعله، إنها ليست عاجزة، بل جبارة لحد أن تلوي رقبة، دون ريب أو توان، تقول لي:

«لا تهتم، خذ بالك من نفسك وصحتك، الباقي سيجليه الزمن».

أعلن انتفاضتي أمامها وأبدي استعدادي للإيقاع به، تسارع بالرد:

«ياك ثم ياك».

كانت تشعر بثقله على البيت وما يخبئ، أنا كنت أستعجل النتائج، اختلفنا كثيرًا بحواراتنا الجانبية، حاول الاثنان نجمة ومزهر - معرفة ما يدور، لكننا نميل إلى الصمت حين يحضر أحدهما، اعتبرته سرّي الصغير، حين كبر كان لا بدّ أن ينفجر، بقرار الانسحاب كنت قد وصلت إلى مرحلة اللاعودة، «يارا» بطرف خفي شجعتني على الانسحاب، لم تمنع ولم تتعجب، بل بسهولة قالت: «أحترم رغبتك».

كلماتها كانت علامة على ناقوس يدق، دون أن أسمعها، فهمت كلماتها بمعنى: هيا انسحب بسرعة قبيل فوات الأوان، بقيت أفكر أيامًا وليالي، دون الاهتمام إلى معرفة السبب الكامن خلف عبارتها. لَكَم هي جبارة تلك المرأة التي تدرك الخطر، عاجزة عن صده لكنها تخلق لها منفذًا هنا أو هناك، لن تحبّوها كما أحببتها واحترمتها، خاصة بتلك الأيام الكالحة السواد.

بعد أسبوع من استقالاتي اتصلت تطلبني على وجه السرعة، علمت بأنها في المستشفى وريان جريح برأسه، وجدتها كالطود شامخة، لم تذرف دمعة ولم يهن لها جناح، دون موارد ولا نقاش أمرتني:

«خذ جاكوبيان معك إلى البيت وخبئه عندك، احرص.. الجن الأزرق يجب أن لا يراه ويعرف سبيله».

عرفت في ما بعد أن الصبي تمّ اختطافه مرتين خلال ذلك الأسبوع، في المرة الثالثة أراد غضبان الحسن شطره بساطور، يده اليسرى توقفت فجأة فوق الساطور على الرقبة وخذشها.

ما كان يعتمر تحت السطح، بدا ينضح صديده إلى الأعلى، مهادنات غضبان السابقة لم توصله لهدفه، فقرر العمل العلني وكانت الورقة الضاغطة على السيدة وجود الصبي.

يوم جلبته إلى هنا بقيت الليل كله أحسب الأمور من جديد، أعيد ترتيب ورقات التوت فوجدت أن استقالاتي جاءت بالوقت المناسب، وأن المرأة أبعدتني بالقوة، لأكون السند غير المرئي، يالله كيف كانت تجري الأحداث؟ كيف كنا في المعمة، عميائًا نجري وفق سياقاتها، لا نعي المضر، غير المكشوف، الوجه الثاني للأشياء التي تنترب من أصابعنا يوميًا.

«هل تذكران ذلك اليوم؟».

«نعم بابا، كانت برقبته ثلاث غرز وضادة طبية تغطي نصف الرقبة، كدت أبكي، عندما رأيته».

«عندك، في هذا البيت، اختبأت سبع سنين».

«بلى، غيرنا اسمك من جاكوبيان إلى ريان، وأوصيتك إن سمعت اسم غضبان الحسن.....».

«أن نهرب، نذوب مثل فص ملح».

ردد الاثنان معًا، أرفقاها بضحكة، معجونة بالقهر والحزن، مرّ شريط طويل من أحداث تلك الأيام، حينما كانا صبيين، هو بعمر الست سنوات وهي تصغره بعام، تذكرت هند أسئلته الحرجة، بتلك

المرحلة وكيف كانت تخترع لها إجابات، من تلك التي تنطّ فيها الجنيات وتتقافز مثل القردة.  
باللحظات التالية تبسما الاثنان معًا، أيضًا وكان الشريط انتقل من الصور الحزينة إلى اللقطات  
المتعة من حياة الصبا، التي جمعتهما وعاشا في كنفها سبعة أعوام، عرفا فيها الألفة والعيش تحت  
سقف بيت الأسطى.

لحظات أخرى انتظر طه أن تنفرج أساريهما، أطلاا المكوث بهذه المحطة وكأنهما يتحسران على  
ضياعها، الحلو الذي لا يدوم.

«تبدو الحكاية قد انتهت، لم يعد لديّ ما أسرده، ليالي سطح الدار ونجوم هند قد ولّت، أنا وفيت  
عهدي، برغم أنني كنت لا أود سرد حكاية أمك، جاهدًا تمنعت، لما يشوبها من حزن وذكريات  
توجع القلب، أنا رغم كل شيء أختلف عنكما، أنتما تستمعان إلى حكاية، بينما أنا كنت مشاركًا في  
وقائعها».

«ماذا بعد ذلك؟ ما الذي حصل لأسرتي، خلاها؟».

«لا شيء يذكر، العلاقة المخبولة، التي تكوّنت، ووجود غضبان ظلنا مكانهما تراوح، عدا أمك،  
بعد اطمئنانها لوجودك، إنك في منأى عن رعونته ولا يطولك شرره، تحولت إلى نمره، ظلّت  
تنهش لحمه، تأكله نيئًا وتضحك بوجهه في اليوم التالي، علاقة مخبولة لن تنتهي إلا بمعجزة، حادث  
كبير يعيد الحياة إلى مسارها».

انفلاق قريحة الأسطى طه، على مرّ ثلاث ليالٍ فوق سطح الدار، كانت مفاجأة لنا، نحن الاثنين، الكم الهائل الذي رواه عن الأم جعلني أشعر بدنو لحظة مقابلتها، إذ بدا لي أنها قريبة جداً وربما تنتظر قدمي بين لحظة وأخرى وكأن كل ما قيل، كان بفعل عامل الترتيب، الذي كان أعده طه، دون التصريح به.

هند أخبرتني بأن نستعد صباح اليوم إلى جولة، لم تكن قد خطت لها، لقد حاولت كثيراً الاستقصاء عن حادثة مشهورة بتاريخ المدينة، كانت قد أوصت كل من تمرّ عليها بالتنقيب عن حالة تشبه وضعي، البحث عن عائلة مفقودة، في نهاية القرن الماضي أو بداية القرن الجديد، تعرضت إلى مضايقات واختفت، لم تحظَ بجواب شافٍ، سمعت من بعض زبائنها من النساء، بأن ثمة مكاناً ما من الضروري تفقده، قالت لها زبونة، من اللائي يترددن على قبور الأولياء، للبحث عن الحبل والولادة، المرأة المخبرة تعاني من عناقيد في رحمها، وتتمنى الحبل بأيّ شكل، لذا أدمنت زيارة القبور للتبرك وطلب المراد.

«عليك زيارة مقام العاشقين».

الجولة -كما أخبرتني هند- ستشمل طرف بغداد الجنوبي، في منطقة كانت تسمى «أم العظام»، الآن المنطقة تمّ الاستيلاء عليها ومصادرتها ضمن أملاك الدولة، بيد أن القبر لم يمسّ، المكان يعد دائماً بالذات وقت المغرب- ملتقى العشاق، هو في الأصل قريب من جزيرة العشاق وسط نهر دجلة، عندما يخرجون من جولاتهم هناك يمرّون على المقام للتبرك، يشعلون شموعاً ويحلمون بعاشقين اثنين، ناما في سرير واحد وقتلا غدرًا فيه.

حكايتها لذيدة وصارت على ألسن الناس، منذ عشر وبضع سنين، نتيجة أحلام الناس في البحث عن منفذ للفرح، أصبح المقام قبلة زيارة ومتمعة للتذكر بأن هذه المدينة ما زالت حية وفيها عشاق، يموتون من أجل الحب والشوق.

لم أصدق الحكاية إلا أن أرى بنفسي، فكل ما حولي ينبئ بما يشبه الموت، اكتظاظ المدينة وتشرذمها في حياة مملّة، هند قالت: المشوار ليس ببعيد، سأرى بنفسي أسطورة هؤلاء العاشقين لأوقن أن ثمة حياة ما زالت تتبض، برغم كل الخراب الظاهر.

تبدو الفتاة على دراية بعنوان المكان، بعد مشوار ساعة بسيارة أجرة أمرت السائق بالتوقف قرب جدار إسمنتي طويل، إلى الجانب منه ثمة بعض الشجر الذي لوّحته الشمس فيدا أجرد من الأوراق، الأرضية خضراء من حشائش طبيعية، تنتشر بعدم تناسق، لكنها تشكل بساطاً أخضر جميلاً.

دلّفت قبلي واجتازت صف الأشجار، ظهر البيت الخرب والمقام، قبة مضلعة وواطئة، لحد أنها تداني القرب بلمسها والوصول إلى حافتها، المقام لا ينمّ عن ذوق في بنائه، كأنه شيّد على عجل، بيد عمال غير مهرة، الباب الأبيض تُلطّخه كفوف من الحنة، وباقي البناء ملون بالأزرق الغامق.

قرب الباب وقفت هند وتلمست الخشب، حذرتها من الشقوق، مخافة جرح يدها، لكنها مرّرتها كما

فوق زجاج، كانت تؤدي طقسًا، عن ظهر غيب قد مارسته من قبل، ببركة تقبل الآن عليه، أنا أتبع خطاها وعلى أثرها أمشي، منقادًا بفيض المحبة الذي اكتنفها وفاضت نحوي.

بعد الباب ثمة فسحة مفتوحة السقف، في الوسط يوجد مستطيل، بطول ثلاثة أمتار وعرض أربعة أمتار، يرتفع قليلاً عن الأرض ومغطى بلون زاهٍ، وردي مع ميل واضح نحو الاخضرار، حول المستطيل وبداخله أوانٍ مدورة، من نحاس أبيض، لماعة ونظيفة وفوقها تتناثر أوراق الياس وأشكال مختلفة من شموع دائبة، بالتأكيد أوقدت من قبل وانطفأت.

السياج الحديدي البني اللون لا علامات عليه ولا أدعية ولا موجز عن حياة صاحبي القبرين، ثمة خيوط من حرير أخضر معقودة في أطرافه، فعلت هند ذلك وقالت: «تمنّ شيئاً، واعقد ناصيتك أيضاً».

فعلت بيد مرتعشة، أعانتي هند على شدّ العقدة بشكل متناسق، ثم همست: «ألا تصرح لي بأمينتك؟».

لم تنتظر جواباً، ظلّت تطوف حول المستطيل وشفتها لا تتوقفان عن الحركة، يبدو أنها تقرأ أدعية، تحفظها وتردها ببسر في حضرة هذه المزارات، عندما وصلنتني، أنا المتسمر في مكاني وأطالع الزائرين بنوع من التركيز والاهتمام، همت بقول شيء ما، لكنّ عجوزاً تتستر بالسواد انبثقت فجأة بيننا، ربما من الفراغ خرجت:

«أهلاً بكما، شكرًا على الزيارة، كنت أنتظرها على أحرّ من الجمر».

تلاشت مثل دخان، أو إنها اختفت من الشق الذي خرجت منه، في أديم الأرض، لم نعلّق بشيء وإن كنت قد ارتيت بأن ما حصل كان وهمًا، ظلال من ذاكرة متعبة تخلق أشكالاً وتمحوها باللحظة نفسها، بين أن أصحو من وهم الرؤية ولملمة شتات نفسي، تقدمت نحونا شابة، تستوضح إن كان ما يقال حقًا.

«وماذا يقال؟».

سألت ببلاهة.

«يقال إنهما عاشقان، عجري وامرأة علوية، تعاهدا على الحب وقُتِلَا معًا بيوم واحد».

لا أنا ولا هند نطقنا، أصابنا الخرس، الفتاة حسبتنا أبلهين، فانسحبت تسأل أناسًا آخرين عن حكاية القبرين وما يشاع عنهما.

جلست هند بعد اجتياز الباب، جاورتها مآدًا ساقِي في عرض الممشى المؤدي إلى ممر الحشائش، لا حوار يتداول، صمت ثقيل خيم، كأننا ما زلنا نهضم كلمات الفتاة، نظرت صوبي مرات عدة ولم تتفوه بعبارة، عيونها شاردة ووجهها محتقن بظلال من وجوم كالح، لو أنني نظرت في المرأة فلن أكون بأحسن منها نضارة، ربما عامت بوجهي غيوم وعصفت به، تصبرت قليلًا، عليها تقول ملحوظة، الصمت يغلفها مع انتكاسة رأس نحو تراب الشارع، مدّت يدها وعبثت به، تُكوم تلاً ثم

تقرشه، ترسم خطًا ثم تمحوه، الاضطراب بداخلها سيد، وأنا لا أقل عنها اضطرابًا.  
«هيا نذهب».

لم تعلق، بل خشيت أن تعلق، مخافة جرح قدسية الصمت الذي جللنا، أنا على يقين أنها تفكر مثلي،  
سؤال دار ولا يزال، بالتأكيد لم نفكر بالإجابة، لعنا لا نريد التفكير بها.  
«أحقًا هذان العاشقان، المدفونان هنا، هما مزهر الشادي ونجمة الحسن؟!».

يبدو لهند أن ريان على وشك الوصول إلى أمه، فكل الدلائل تشير إلى اقترابه بما فيه الكفاية، ولا بدّ أن يحظى بها في القريب العاجل، هي بالمقابل تشعر بعد هذا المشوار المعقد من الشدّ والجذب أنها وصلت أيضًا إلى الخاتمة، ولكونه ما زال كالصخرة لم يتزحزح باتجاه التخلي عن ميكانيكية التعامل، فلا بدّ من وضع الأمور في نصابها، أن تصنع النهاية بنفسها، ما دامت كل الطرق السابقة لم توصلها إلى الشكل المرجو.

تشعر بخطأ ما، هنا أو هناك، بالعلاقة معه، هي تنتظر من زاوية أن الطير رجع إلى عشه، بينما هو ما زال يحلق بعيدًا، بالذات بعيدًا عن سمائها، لقد ظننت أن التطور بالعلاقة سوف يقوده حتمًا إلى فضائها، تعتقد أن الألفة وتحولها التدريجي على مرّ الأيام إلى رعاية خاصة ثم إلى الاهتمام ستؤدي حتمًا إلى علاقة محبة، بشكل ما معه، اعتبرت أن اجتيازها وإجادتها وسعيها لعبور كل هذه المراحل، لا بدّ أن يسترعي انتباهه ويأتيها على طبق من ذهب.

العناد -الذي يبديه برغبة أو بغباء- لن يقود إلى الخاتمة، بل بالعكس اعتبرته نكسة في مسيرة العلاقة، لطالما قررت في الليالي الماضية التوقف نهائيًا وتركه وشأنه، بعيدًا عنها، تسأل النجم عن قرارها هذا، لكنها في اليوم التالي وعلى صينية الفطور تتراجع، تعدّ نفسها مذنبه إن تركته وحيدًا، بالذات في هذه المرحلة الحرجة من بحثه عن الأم، أحيانًا من الندم تشعر أنها مقصرة في المساعدة، فنتدفع بقوة نحوه وتبدأ بنشاط وهمة في البحث الجدّي في مشاويرهما اليومية، سعيًا وراء أمّ في أزقة بغداد قابضة.

التردد والاندفاع، الندم والعودة، أخذًا منها الكثير وصارت تتخبط في تصرفاتها، لم تستطع حسم أمرها، مخافة فقدان الذي سيتبعه الندم وعض البنان.

هي ليست ضعيفة لدرجة عدم الحسم في اتخاذ القرار، إنما الحرص عليه كضيف ولاجئ عندها، طالبًا للمعونة.

نهشتها الليالي الطويلة في السهر والتقلب في سطح الدار، وأتعبتها الظنون والخوف، لكنها أمس قررت الاندفاع والوصول إلى لحظة الاتقاد، تفجّر الواقع أو تقجيره هو، ليتخذ القرار النهائي من تلقاء نفسه وهي حسبت النتائج سواء لديها، بالتأكيد حسبت أن الخاتمة، مهما تكن، أفضل من السكون، الذي تعدّه اغتيالًا لمشاعرها.

تأخرت في الاستيقاظ، كانت تأمل انصراف الأب، ربما إن وجدته في الدار ستراجع عن قرارها، هي تحتاج التفرد بريان، وحدهما في الدار وستفجر قنبلتها، مطمئنة لبقائه، فنادرًا ما يخرج بمفرده أو التحرك دون علمها، لقد اعتاد هذا السلوك، تضحك حين تتذكر، لكنها تعاند ما يخطر ببالها:

«ولو، لا يكفي، هذا لا يدلل على المشاعر».

نزلت السلم خلسة، على أطراف أصابعها، تتوجس خيفة ممن غادر الدار ومن بقي، لا شيء يدل على وجود الأب، وريان يتقلب على الكنبه في وسط الصالة، والأبواب على بعضها مشرعة، إن

أي انفجار سيدي في البيت كله.

دندنت بأغنية، لحن من دون كلمات، تبعد التوتر من داخلها، انقلب على ظهره، بالتأكيد شعر بوجودها ولم يبد حركة بهذا الاتجاه، كأنه الآخر أعدّ قبلة ونوى تقجيرها أيضاً اليوم.

«شكدي.. إنت مزعج».

لا يمكن أن يكون إلا قد سمعها، هو رهف السمع وسريع الانتباه، شعرت أن كلماتها لم تكن كافية لإذابة جليد النار المتراكم في صدرها، لا بدّ من عبارة أخرى، مرفقة بقوة الصاعقة.

«يا ربي.. آه، كيس خرسانة ولا أنت».

رأت تقاطيع وجهه وسحنته قد تغيرت، وانتهت الشجاعة لأن تتحرك بقوة أكثر، لكنها تأنتت، عندما وصلت باب الحمام، همّت بدخوله، الباب ما زال بقبضتها قالت:

«أنت، يا صخرة، أتريد شيئاً قبل أن أدخل الحمام؟».

لم يكن سؤالاً إطلاقاً، من نبرة الصوت يتقطر التحدي، مشوباً بإهانة مخفية، تدرك أنه يراقب حركاتها وأنه متحفز بالكامل لما تقول، لكن صمته، عدم إقدامه على حركة ما، زادها غيظاً.

«اللعنة، يوم أسود ذلك الذي.....».

سحبت بقية اللعنة التي تعادل مسبة إلى داخل الحمام، وأغلقت الباب بقوة كافية لأن يرتج لها الحائط والممدد على الكنبية، قليل من الهدوء، ثم تعالي الغناء مع خرير الماء المناسب فوق جسدها، هي في الحقيقة تنهياً للانقضاض السريع القادم، جريان الماء على جسدها زادها نشاطاً وفوراناً.

عارية إلا من سروال ضيق أسود، قبالتة مباشرة تنتصب بجسد يقطر ماء ويلمع للضوء المتسلل، القطرات تنشظى إلى انكسارات ضوئية متوهجة فوق الجسد البضّ، مصعوقاً رفع جذعه وفمه مفتوح.

«ما بك؟».

ببرود، ضاغطة على نهديةها، حاشرة إياهما بين زندين أبيضين.

«هل تريد شيئاً؟».

الشاب بالتأكيد أصابه الخرس، أو ربما شلّ من المفاجأة، رفع يداً تؤشر، نظرت إلى جسمها ثم استدارت دورة كاملة، وبتحدّ تسأل:

«ماذا؟ علام تؤشر؟ ألم ترّ من قبل جسد فتاة؟».

انسحبت داخله المطبخ وكأن الأمر لا يعينها، وجهها نحو الحائط ذي الشباك، أرادت إطلاق ضحكة عالية، الانتصار في منتصف المعركة، بيد أنها خافت فضح أمرها، لا تهزّ جسدها في أثناء العمل، بإتقان وسهولة وبوقت قصير كانت صينية الفطور بين يديها، تحملها بالاتجاه البعيد عنه ومن دون دعوة تبدأ بإعداد شريحة من الجبن والمربي.

رفعت ساقها وثنتها، بحيث تتقاطع مع صدرها وتجعل من الفخذ بارزاً ومكوراً أمامه، تأكدت عبر عين مواربة أنه يطالعها، بدلت الساق بالثاني فحشر السروال قليلاً، نهضت قليلاً ومطت سروالها بصوت واضح، ربما الشاب تخيل أنها ستخلعه، مما جعله يقف فوق الكنبه، عاودت الجلوس من دون أن يرف لها جفن مما أبداه من ردة فعل.

أكملت الفطور وحدها، كادت تنهض باتجاه المطبخ، لكنها تراجعت بعد خطوة واتجهت نحوه، فلمّا وصلت دفعته ليتكوم كتلة فوق الكنبه، فوقه منحنية ونهداها يتدليان مثل خوختين ريانيتين فوقه، شهق أو اختنق، بكل برود:

«ما بك؟».

ثم تعقد حاجبيها علامة الاندهاش:

«ألم تر صدر فتاة سابقاً؟».

هو لا يقوى على الردّ، تحيطه سحابة امرأة، يفوح منها العطر وتنقطر أنوثة.

«قل، هيا قل، ألا يعجبانك؟».

ساكت، منطوي على نفسه من هذا السيل العارم الذي اجتاحه هذا الصباح.

«لا تقل إنك تفكر في لمسهما، هما أبعد من أنفك يا....».

تركته، انسحبت بعيداً، مع كلمة ترد، مثل حديد حام.

«يا بارد، كالتلج».

دخلت الغرفة، غابت هنالك ربع ساعة، خرجت مرتدية كامل أناقتها، بوجه ودود تسأل:

«ريان، هل أعد لك الفطور؟».

ثم تسترد أنفاسها، كمن تعب من الركض:

«لنذهب إلى الخارج، نتجول، هنالك نفطر معاً».

الفتاة في اللحظة الأخيرة أذابت كل جليد قهرها وعادت سوية، تتعامل مع الشاب كرفيق مشوار، وإن لها من الدلال ما يكفي لأن تطلب منه الفطور في أحد محلات بغداد.

بوهن، ثمة طرق خفيف على الباب، يشبه ديبياً ناعماً، ظنت هند أنها توهمت سماع صوت، عاود الطرق بشكل أخف، عندها تحركت باتجاه الباب، ثمة غمامة سوداء لم تتشكل بعد، لكن مع الصوت المبتوث كرزاذ استباننت أمامها امرأة عجوز، مع رجاء بأن تدخل، يبدو التعب واضحاً من خلال الرجاء، أوسعت هند فتحة الباب ولم تقل شيئاً، أرادت للتشكيل أن تبرز ملامحه بما يكفي، لمعرفة الطارق.

«صباح الخير».

بعزيمة ودفعة قوية من مسنة، تلتحف السواد، كانت قد وصلت إلى وسط الصالة، عندئذ عرفت هند أن ثمة ضيفاً جاء به هذا الصباح، ريان في الحمام وهي وجهاً لوجه مع الضيف، حاولت استرجاع بعض الصور، لتتذكر أين رأت هذا الكائن المتلفع بالسواد، لم تمحص الذاكرة بشكل جيد، انبثقت بشكل سريع صورة امرأة عجوز، انشقت عنها الأرض في مقام العاشقين، سلمت بحرارة ثم اختفت.

«أنت التي أبصرتها عند مرقد....».

«نعم، منذ يومين وأنا أتردد في المجيء إلى هنا، لكن حزمت أمري، أنا ضيفتك هذا الصباح».

كمن وجد لقية ثمينة انطلقت أسارير هند، حاولت أن تبدي بعضاً من التعبير بأنها تتوقع هذه الزيارة، لكن لم تستطع بسبب الارتباك الذي بان في تصرفات الفتاة، جرت نحو المطبخ لتقوم بواجب الضيافة، قرب باب الحمام همست إلى ريان بأن يستعجل الخروج، ثم عادت إلى الصالة، بيد أنها رجعت باتجاه المطبخ.

حملت «قوري» شاي، معداً سلفاً لفظورهما، أضافت «إستكان» جديد على الصينية، بخفة جلست بجوار المرأة، التي تبدو عليها السكينة التامة وإن كل ما يجري حولها لم يكن ليشكل لديها رفر جفن، كأنها صنعت من جلود أو اعتادت السكينة بما يكفي، وأصبحت الكلمات هي المعبر الوحيد للتواصل مع الآخرين.

لا يبدو الهرم في تقاطيع الوجه، ثمة رعشة واضحة بحركة اليد، بعض الشعيرات البيضاء تخرج من تحت شدة الشال، مما يوحي بأن السواد هو الغالب، جسدها يرتكن الكنبه باستقامة واضحة وجذع فارغ، كانت هند من تحت رموش ناعسة تقرأ المرأة، بنوع من الفضول، بالدرجة الأولى، فضول فتاة شابة تبصر مرور الزمن فوق لوحة جميلة.

«كأن الجمال لم يفارقك، مثل خيوط الشمس ما زالت مشعة».

قالتها هند كنوع من إفساح الطريق لحديث آخر، المرأة رفّت لها ابتسامة حلوة ومدت يدها تقبض على معصم هند، دلالة الشكر على المجاملة، كلاهما ينتظر الفرصة المواتية لانطلاق حوار قادم، فهند جال ببالتها أن معجزة وصلت إلى بيتها، بينما المرأة تتوي التدرج في حديثها، ذلك الذي جلبها

إلى منطقة قنبر علي، فهي منذ يومين قررت المجيء، لكن تردد ما حال دون ذلك.  
كانت المرأة تريد من الفتاة أن تتصبر قليلاً، ريثما تتأكد بنفسها أن الفتى هنا، في هذا البيت يسكن،  
برغم يقينها أنه لن يجد مأوى آخر، في هذه الظروف، غير بيت أسطى طه.  
«سيخرج عما قريب، إنه بالحمام».

أدركت المرأة شطارة الفتاة حين نطقت، يبدو جلياً أنها قرأت ترددتها وحسنت الأمر بأن نوهت عن  
وجود الفتى، عندها أزاحت العباءة السوداء عن الأكتاف، بحركة تدل أنها استرخت وأن الحديث  
سيمتد ويطول، هند بالمقابل لم تعد تستعجل المرأة، فقد أظهرت لها الترحيب الحار لوجودها  
بالبيت، كأحد أفراد الأسرة، ذهبت إلى شؤون المطبخ، متيحة للمرأة فرصة تأمل محتويات البيت  
والتألف معه.

ظنت المرأة أن البيت ضيقاً على عروسين، بوجود الأسطى معهما، استبعدت فرضية الزواج  
وغلب عليها الظن أن وجود شابين، مع أب، في بيت متواضع، لا بد من أنه يجلب الألفة والمودة  
وأن الفتى لا يشكل معضلة لأهل البيت، حين وفد منذ ثلاثة أسابيع، البيت مرتب بشكل أنيق، ولا  
فوضى تدلل على عبثية الشاب أو الأب، مما جعلها تعدّ هند ربة بيت ناجحة وذات مهارات.

تحركت من مكانها وطافت في أرجاء البيت، ثمة أشياء من الدقة، بحيث كانت تتلمس الزوايا  
وبعض مقتنيات الزينة، التي تنتشر بنسق وذوق عاليين، مرّت على باب غرفة، بنظرة خاطفة،  
عرفت أنها للفتاة، مرتبة ويغلب اللون الوردي الخفيف على جدرانها، خزانة الملابس من الصاج  
الأبيض الجاهز وتتخذ ضلع الغرفة البعيد عن الباب مكاناً، ثمة بنطال جينز، حشيشي اللون،  
وبلوفر صيفي جميل يفترشان طرف السرير، رجعت بسرعة ظناً أن الشابين يخططان للخروج.  
«أنت ضيفتنا على الغداء».

صوت هند يأتي من المطبخ ويوحى بالانشراح، مما ساعدها على الهدوء، وإن ثمة تبديلاً قد طرأ  
على مخطط اليوم، ما زالت واقفة وعلى وشك الجلوس، حين فتح باب الحمام وعلا صوت الشاب:  
«هند، فدوه، كباتشينو ساخنة».

نحو المرأة يستدير:

«أهلاً وسهلاً».

كان مجاملاً إلى أقصى حدّ، نادراً ما كان يبادر باللقاء بشخص غريب، إن لم يكن على دراية على  
الأقل بسيرته الذاتية المختصرة وهذه إحدى المنغصات لهند في تصرفاته، وتعدّها جزءاً من  
ميكانيكية التعامل التي تغلب عليه، ابتسمت له هند وبإشارة من يدها كانت تدفعه نحو المرأة، تحته  
على الجلوس والترحيب وفتح حديث جانبي معها.

«يا الله، ريان سيتغير».

قالتها هند مع نفسها وانصرفت بوجهها نحو حائط المطبخ، تتم ما بيدها من عمل، كانت تعد

مستلزمات وجبة الغداء لضيف هذا الصباح المفاجئ.

شعرت أن الوقت قد حان للتعارف، مسحت يديها بمنديل واتجهت إلى الصالة، مسكت يد ريان وقادته باتجاه المرأة، مقابلها جلسا بهدوء، المرأة ظلت تتفرس بوجه الشاب، من دون أن تقول شيئاً.

«أنا.....».

يبدو أنها لم تجد المدخل المناسب لبدء الحوار، لم تكمل جملتها، بحثت في ثنايا ذاكرتها عن كلمة مناسبة.

«كأنك طيف من ماضٍ».

استغربت هند مبادرة ريان، رفّت أصابعها فوق يده، بالسرّ بينهما، تبدو اليدان متشابكتين، الشاب شعر بتشجيع هند، عند سريان الدفع إلى كفه.

«لست غريبة، ثمة صورة في ذاكرتي.....».

ترك بقية الكلام معلقاً وراح يطارد الصورة التي مرّت بذهنه خاطفة، لم يمسكها بشكل جيد، ظهر ذلك من خلال حركة شفثيه، بجزم يقطع التشويش ويحسم الموقف:

«هل أنت من طرف والدتي؟».

«والدتك أم أمك؟».

شعرت هند أن صيد هذا الصباح ثمين، زغردت، في الحقيقة شهقت، لكن بخبرة نسائية واضحة حولت الشهقة إلى زغرودة ناعمة.

«أنا لي أمان، منهما والدتي».

«يا الله..».

لم تمهله الوقت، كصوت رصاصة، أطلقتها سريعاً:

«أنا أمك».

بدا الارتباك في البيت، كأن قنبلة انفجرت، هاج الجميع بانتظار تفقد ما قد وقع، هند ذهبت وعادت، ريان قام وقعد، الكراسي تحركت عن أمكنتها، صوت ما زال يوشوش في الأذان، مصدره الضجيج الذي يعلو بداخلهم، بعض الوقت مرّ ثقيلًا.

الفرج أتّ لا محالة، لتوضيح الالتباس لا بدّ أن تبادر المرأة بإزالتة، هي لم تقوَ بعد على قول ما في جعبتها، ظنا أن معلومتها كافية لإزالة أيّ غموض، لقد كانت عبارتها واضحة، أدرك الشابان أنهما افتعلا ضجيجًا غير مبرر، وأن من الأفضل الميل إلى الهدوء، وإعطاء الفسحة لانسياب الحوار بطريقة أخرى وإن كان ثمة انفجارات قادمة ومحتملة في ثناياه، جلسوا جميعًا من جديد، يتقرسون في الوجوه.

«لنتعارف بشكل أفضل، أنا هند، بنت الأسطى طه».

بلع ريان ريقه ولم يفكر بتقديم نفسه، عوضًا عن ذلك مدّت هند يدها باتجاهه:

«وهذا جاكوبيان، ابن مزهر الشادي».

«وأنا...».

تبلل شفثيها، تتيح الفرصة للشابين للانتباه والتركيز:

«وأنا نجمة الحسن».

لا مبرر لاستمرار الحوار، من وقع التصريح احتاجا إلى برهة زمن، لمراجعة الذات، بما فيها من صور، عالقة بهذا الاسم، يبحر اسم نجمة في داخلهما، مثل شراع بربان ماهر، يلتقط الحكايات السابقة، ينتشلها من الزحام، يجمعها ويعيد ترتيبها، لتبدو في النهاية حكاية قائمة بذاتها، صور ناصعة الوضوح والبياض أزيح عنها غبار الزمن وعادت حيوية ونشطة، تفرض إيقاعها ووجودها في الذاكرة والزمن، المرأة بالمقابل احترمت رحلة الشابين في الأعماق، فلم تحرك ساكنًا.

«من العادة لدينا، إذا كانت لدينا قصة تُحكى، الصعود إلى السطح، نرشه بالماء حتى تهبط النجوم إلينا، نستمع إلى الحكاية، وحين ننهي نحملها إلى الفضاء، هنالك تبقى معلقة حتى يأتي ذات يوم راوٍ وينضدها مثل طوق الياسمين ليكتب سردياتنا الكبرى».

«لكن ما سأحكيه يقارب النهاية، وقد تكون محزنة».

«سيدتي، كل حكاياتنا حزينة، نحن من نجمّل الحياة ونجعلها مقبولة».

هو ليس حوارًا، إنما كان ترحيبًا بي، بعدما سعدنا إلى سطح الدار، الفتاة أعدت الجلسة ورتبتها بما يشبه الألفة، عائلة تتسامر تحت ضوء النجوم والأرض منددة بماء رُشّ منذ قليل وربما بعد قليل ستهبط النجوم لنقضي الليلة في حضرتها، استرخيت وطلبت أن أمدد ساقي، فالوهن بهما منذ أمد، ويحتاجان إلى رعاية خاصة، ابتعد الولد فاسحًا المجال والبنت وضعت وسادة عند الظهر، الأب تبسم وسأل إن كنت مرتاحة في جلستي، شكرته قبل بدء القص.

«في ما مضى، في تلك الليالي، من تلك السنوات، في ذلك الزمان، كان هناك...». كما كان يبتدئ أجدادنا».

«وكما أوصى» شروباك «منذ خمسة آلاف عام».

نعم أيها الصبيان، كان هناك همزة وصل في العشق، أنا أعشق مزهر وهو يعشق «يارا»، إن حضرت برقصها، تاه بها متيمًا وولها، نعيش معًا ونكمل بعضنا والأيام تأخذنا في دينها، نحسب عضاتها وتحسب لنا حرصنا على الهناء، لا يعكر صفونا طارئ ولا نبالي، حتى في أشد الظروف حلقة كنا متآزرين، نعصد بعضنا، كل شيء في البيت يسير هينًا ورائفًا، نادرًا ما هزتنا ريح.

أنا نسيت «النجف» كلية، لم أعد نفسي خارجة عن الطوق، حينما كنت وراء مزهر أسعى، بين المضارب وبين حفلات الأعراس، حتى عندما اقترنت به، كان بنظري أمرًا طبيعيًا، فتاة تبحث عن الحب، فوجدته عشقًا، خروجي من طوق العائلة في النجف لم يشكّل في ذاتي مثلبة عليّ ردمها أو أشعر بالذنب تجاهها، كل شيء كان محرّمًا على البنت، لقد كنت من الضيق بحيث أن أنفاسي تصعد وتهبط مثل حشرة الموت، كان عليّ أن أجد نفسي، أصبح مزهر هو القطب، عندها شعرت بحقي في الحياة والعشق.

عندما تختلط علينا الأحداث، بالذات في أيام الشدة كانت «يارا» بالمرصاد للتغيير الذي يأتي بغتة، كانت تشدّ أفكارها وتخلق البديل، امرأة تمتلك قدرات هائلة على التكيف والبحث عن الحلول، لم تمرّ علينا الفترة الأولى عند تشغيل مصنع البسطرمة سهلة، بل اكتوينا بنارها، بشطارتها وبراعتها حولت عذابتنا وتعبنا إلى راحة بال، أحيانًا ننسى أن بالخارج شدائد، والناس تعاني الضنك، فبجانبا ثمة سحر، سحر يقلب الفجيعة ويستبدلها بالفرح.

حينما حلّ بيننا غضبان شعرنا بالخوف وكاد يهدّ البيت بما فيه، لولا حكمتها وتجلدها بإيجاد الحل،

كنا نتناقش بالوضع ونصل إلى نقطة اللارجعة، تطلب التريث ونظن أنها عاجزة في تلك الأيام أو نضبت الأفكار لديها.

شعرنا بالإحباط وقررنا، أنا ومزهر، الفرار بجلدنا، هي بتلك الفترة كانت بعيدة عن مرمى نيران غضبان وتستطيع ضمان سلامتها من أذاه، لكنها لم تقبل التفريط بالبيت، بتلك الصحبة والمحبة التي ألفت بين أضلاعه الثلاثة، اقترحت ذات صباح جلب غضبان إلى البيت، أنا لبسني الرعب وتبولت على نفسي من الخوف، فضلاً عن تهديد مزهر بالفرار، توسلنا كثيراً وأثيناها عن هذه الفكرة.

كأنه كان يستمع لنا من وراء الباب، مثل شيطان نطّ في حضرة البيت، مع ثلة من جنوده، أنا هربت إلى غرفة منزوية، ولحقني مزهر، وبعد لحظات اقترح تسلق السور والهرب، لكن طمأنينة ما نزلت علي، كنت أثق بقدرات «يارا»، لا بدّ أن تروّضه، وما هي إلا لحظات قليلة، بالنسبة لنا كانت عمراً كاملاً معجوناً بالرعب، حتى سمعت صوتها تتاديني:  
«الله فرجها..».

قلت مع نفسي، بقية الحكاية لا بدّ أن الأسطى قد رواها لكما.  
«نعرفها».

بين مدّ وجزر عشنا، غضبان الحسن ذليل بحضرتها وهي تطوّعه مثل قطعة طين كيفما تشاء، سنوات مرّت وهو كالخادم، يلبي ما تأمره، مع نفسي لا أصدق ما أراه وأتوقع أنه ما زال يضمّر الشر.

يوم مغادرة الأسطى البيت شعرنا أن ركناً منه انهدّ، ولم نر الأمر مجرد رغبة لطفه فقط، بل وراءه ما يخفي وسيظهر إلى العلن.

كنا نخاف على مزهر، همزة الوصل لعشق ما خلق إلا ليثمر، خفنا أن يتسرب من بين أيدينا بلحظة غدر دون حساب، وكان عليّ تحمل الوزر كله، الهرب من بيت أهلي وجري مزهر إلى هذه المنزلاقات، التي ستؤدي بحياته، فنويت الشر، حصن الدفاع الأخير عن البيت، من دون أن أخبر شريكي بما سأفعل، ربضت له ذات يوم عند الباب وببيدي سكين مطبخ، أجنده بلحظتها صريعاً بدمه في طعنة عند موقع الكلية الباقية بجنبه الأيمن وفعلت.

لم أفلح وقتها، ساعتها تحول إلى طنطل، ما كان يخفيه استبان، ثرثرته التي انطلقت، كرده فعل للطعنة، أخرجت ما في جوفه، إنه يخطط للتفرد بيارا، يقتل العجري ويرمي أعضائي إلى الكلاب، ويبقى حرّاً مع «يارا»، «يارا» الحلم والأمنيات الدفينة.

صارت الحياة بعدها كراً وفرّاً، يغيب أشهراً ويظهر ليعربد في البيت، يكسر ويصرخ ويرفس، لا رادع له، حتى سحر «يارا» فكّه عنه، يراها ولا يراها، يقف أمامها عنيداً ومعربداً، وفي غارة ثانية يأتي متوسلاً إياها أن تعفو، هي ملت من لعبه الصبياني.

كانت بتلك المرحلة أشدّ حرصاً على مراقبته، مرة طلب منها التعري أمام جنوده، وحينما مزّق

ثوبها واندلع صدرها، مثل ماء رقرق، أطلق أعيرة نارية في الهواء وفرّ الجنود وبهم حسرة على عدم مشاهدة رمانتي «يارا» المندلعتين من زيجها الممزق.

كانت ترى الخلاص على يديها وإن لعبة حملته الإيمانية تحولت إلى ما يشبه الرعونة بقتل الحياة فينا، ظلت تنتظر الفرصة للانقراض، ولم تحن تلك الفرصة، انتظرنا أسابيع وأشهرًا، مرّت بطعم الحنظل، وغضبان في كل مرة يفلت من مخططها، تلك النتف الصغيرة، التي تصنعها الأحلام كي تبقى متشبثة بالحياة.

في الأيام الأخيرة كنا نشعر بالجو العام بدأ يختنق، وثمة نذير يلوح في الأفق، لا نعرف كنهه، قيل وقتها إن القوات الأمريكية نزلت بالمطار، وقيل إن «دبابة فوق الجسر أسقطت العلوج»، نشعر بوطأته وننتظر، علنا ننهي من لعبة القط والفار التي جلبها مجيء غضبان معه.

«حانت ساعته».

كانت تطلب منا الانتباه بأن الساعات القادمة ستعتق نفسها من ظله، في عينيها إصرار رهيب، خفنا وطلبنا منها التفاصيل، لكنها رفضت البوح، يقينها ستتخلص منه نهائيًا.

ظهيرة يوم منعش من «نيسان» جاء نافسًا ريشه كالديك، كان يصرخ في أرجاء البيت باسمها، يطلبها والغضب يتطاير من عينيها، نحن في مخبئنا نسمع صوته ونتوقع أن المعركة قد نشبت.

«بنت الكلب، أيتها الراقصة اللعينة، لمن اشتكيت؟ سأمزقك إربًا.. بنت الكلب..».

ويعود الشريط من جديد يسب ويلعن ويتوعد «يارا» بالويل، بتلك اللحظة لم يحتمل مزهر وقرر الخروج من الجحر، قال كلمته وأنا أتشبث بقميصه:

«العمر واحد.... دون ذل».

خرج وخرجت وراءه، في باحة الدار كان غضبان يصرخ، مثل ثور هائج، رؤيته لمزهر كانت انطفاء لصوته العالي وتمرغله في لحظة انعطاف حادة في سلوكه المراوغ، أراد أن يرحب أولاً لكنه فجأة شهر مديته، رمى سلاحه الناري ونوى ذبح مزهر بسكينته، عندها بتلك اللحظة خرجت عارية «يارا»، أدركت فداحة الموقف، فخرجت عارية، اللقطة التي تنقل المشاهد من التوتر وأجواء الرعب إلى مشاهد رومانسية، تتساب بهدوء وروية.

«نامي على الأرض، أضاجعك».

انصاعت لطلبه، فتحت ساقبها وأفسحت مكانًا، اقترب، طلبت منه أن يتعري، بسرعة وبحركة مجنونة نزع ثيابه أو مزقها، صعد فوقها، أمسك عضوه بين أصابعه ليدله إلى كهف المرأة، أنا مصعوقة أفرج ومزهر يريد أن يفلت من قبضتي، و«يارا» تتمطى في رقدتها، وغضبان على وشك التمدد فوق جسدها.

دفعته بساقها، مال نحو اليسار، قبضت على عضوه، تصور أنها تدله وتدخله بيدها، بيدها الأخرى لمعت السكين، جزت العضو فخرج بيدها، لم تتركه، جزت الخصية المتبقية له، التاع من الوجع،

نهض، الدم يتقاطر بين أفضاده، رأى الدم، صرخ، هرب إلى الشارع والدماء ما زالت تقطر، رجع يصرخ، ارتطم بالباب، عالجه مزهر بعصا على رأسه، من فرط الوجع سقط، ركضت إلى المطبخ وكلّي نية أن أنحره، حينما عدت كان مزهر جثة هامدة وبعض من الطعنات في صدره ورقبته، «يارا» تعمق سكينها طعناً بأليته المنحنية على مزهر، غرست بجوارها سكينتي، كفحل قدر قال: «لن أموت بيد امرأة».

هربت أنا، استبد به الجنون، «يارا» بين يديه تضحك وهو يسدّ منافذ الهواء، ماتت من الاختناق، بيد أنها بضحكتها كانت تسخر منه.

«أعرفان، أيها الأولاد، متى حدثت المذبحة هذه؟».

كان الأسطى طه يسأل، هند بانطفاء الوهج من عينيها للنهاية المأساوية، سألت أباها: «أكنت تعرف؟».

«في اليوم التالي دفنت -بمعينة نجمة- الجثتين بيدي، قبر لمزهر وآخر ليارا».  
من دون أن يرفّ له جفن يعلن ذلك.  
«لم أرو لكما هذه التتمة، لوحشيتها».

«الأسطى طه هو من اقترح عليّ، في يوم الدفن، الإعلان أن القتيلين هما مزهر الشادي ونجمة الحسن، تفادياً لأيّ مشاكل قادمة، ليدفن إلى الأبد حكاية البنت التي هربت من النجف وعشقت غجرياً».

«ماذا؟».

«ما هذا؟».

«نعم يا أولاد، العاشقان المدفونان هناك هما مزهر ويارا، أنا من زوّرت وجودها وادّعت بأني «يارا»، امرأة مثلها، صانعة للحياة، يجب أن تبقى حية»..

بلحظة صفاء سيطرح ريان على نفسه السؤال: «ابن من أنا؟»، عندئذ سيرى العالم بمنظار آخر، غير الذي كان، لقد تغير كل شيء وصار منتشظياً، بكل الاتجاهات، وكأن عفريناً ركبه وحاد به إلى الرعونة، فلم يعد البيت والزقاق كما كانا، بجوانبهما عوالم أخرى تشابكت وجعلتهما مكاناً مكشوفاً، عارياً من لحمة التكوين الأولى، الناس أيضاً صارت أشد زحاماً، في جميع النواحي تسعى، في وسط فوضى عارمة، ضربت بأطنابها المكان والزمان والشخوص.

سيرى «نجمة الحسن»، ليست تلك المرأة المضحية في سبيل الأسرة، لقد كانت تأمل «انقلاب الله» بأن يعيد إلى الحياة بهجتها، تحولت من امرأة مستكينة إلى أخرى منزوية، بعدما شعرت بفقدان كل شيء، حتى المرأة التي انتحلت اسمها وأرادت لها الاستمرارية وجدت بأن حمايتها لن تتم إلا من خلال الانعزال، الانكفاء على الذات والقبول بما في الماضي من صور جميلة، العالم خارج بيتها صار غابة، كل شيء يسير نحو السوء، الشوارع، البنايات والعلاقات، لقد كان «انقلاب الله» شاملاً، محق ما كان وجلب الفوضى، تسمع بما يجري كل يوم في الشوارع، انفجارات، سيارات مفخخة، اختطاف، ذبح، وعصابات تجوب الأحياء، يومها حملت ذكرياتها واسم «يارا» وانزوت في بيت بعيد.

الرسائل كانت السلوى، تصل إلى باريس باسم الأم، تحمل في طياتها اللوعة وتبث حنيناً، لا بعودة الابن، بل أن تجد قبراً، يأوي الجسد المنضوي تحت ثقل الأيام، لم تشعر بذنب حين ظلت طوال ثلاثة عشر عاماً تكتب باسم «يارا»، ظناً منها بأن تحافظ على وجود شريكها، الذي يعني الكثير إلى ابن مهاجر، في باريس يسكن، كانت الطيور وسيلتها، ألهمتها المخيلة بعدما خاب أملها بأن تجعل العصافير أجنحة مسافرة، تحمل لواعجها، هي نجمة الحسن وتناجي «يارا» التي تحت الثرى ترقد.

ريان في منظوره الجديد سيرى الأسطى طه أكبر من مقام الأب، رجل خطّ وأدار الوقائع بفعل صامت، تحول على مرّ الأيام إلى بئر عميقة، تغوص فيه حوادث الزمان وتتفاعل، يعي جيداً ويقراً ما سيحدث، لكنه الكتوم ظل، اكتوى بنار الفوضى وصار عاطلاً عن العمل، ويرى تفكك العالم بأنه إنذار لخراب قادم لا محالة.

يرى ريان في الأسطى، لا رجل العمارة الأول في قنبر علي، بل ذلك البارح الذي سارع بليلة المذبحة بنقل الابن إلى المطار لتأمين سلامته من غدر غضبان، ربما تصور أن غضبان آخر سيلبس العمامة والجبّة ويؤلف ميليشيات تجوب الشوارع باسم العودة إلى الجذور، الأصيل والدخيل، بالضبط تحت اليافاطة القديمة، أيام الحملة الإيمانية أو مستودعات الجيش في بساتين البرتقال.

«بمنزلة الأب الفعلي».

سيرى ريان في لا مألوف هند بذلك الصباح المشهود نقطة تفجر حقيقية في حياته، الفتاة التي ألفها واشتهى قربها، انفجرت بوجه ما كان، أرادت الدخول عنوة في عالم آخر، أكثر تشيئاً، يومها لم

تكن أمامه هند العاربية، بل العالم كله، يسحبه إلى واقع جديد، بقي على عناد من الولوج فيه. أمه «يارا» سيرى بدواخلها عوالم أخرى، طاقة لم تبرز وكانت تودّ تفجيرها، عبر جسدها لتخلق فضاء آخر، أكثر أنسًا ومرحًا، سيرى تلك الطاقة الحبيسة تجمل العالم وتدفع الناس إلى السعادة، بالرقص يتصورها ستجذب الآخرين إلى عوالم الداخل والروح وتحررهم من الديدن اليومي، وتراهم محلّقين في السموات.

سيرى في عوالمه السابقة إلى التيه تمشي، حتى الفكرة التي استنبطها واخترع لها حكاية صاحبه الكاتب المشهور «كونديرا»، كانت ساذجة، كيف تأتي له نقل مرثيات بغداد وسخونة حوادثها إلى خدر باريس؟! الادّعاء برواج مبيعات العطور لم تكن مغرية لفتاة، تشبعت بعالمها الروحي واستوت، برغم كل مظاهر الخراب.

سيرى ريان أن عالمه لم يمش باتجاه «فتوحات ابن عربي»، ولا وفق رغبات «ابن الوزان» الذهاب لإخماد النيران، إن عالمه شقّ طريقه باتجاه مغاير، لم يخطر بباله، بيد أنه يتشكل الآن، بعدما اتضحت حكاية «يارا» ومسيرة العائلة المضنية من رُبى أرمينيا إلى ليالي بغداد الحاملة، ثمة عوالم كانت مخفية، يكتشفها وستشكل حياته القادمة.

لقد كانت «الخشبة» ورقص «يارا» علامات بارزة في زمن الصهد، الذي احترق فيه الناس، وحبّ «يارا» كان فسحة لصناعة الحياة من جديد، تلك الفسح كانت من السعة بحيث تبدو وكأنها الحياة ذاتها، التي لم تمتلك فيها «يارا» الأوراق الثبوتية، لكن امتلأت باليقين، الذي به الرحي تدور.

«ابن من؟».

لم يكن ريان يرى نفسه ابن هذه الأرض، فقد كان غريبًا عنها، الحوادث دفعته قسرًا لأن يقطع جذوره، تلك الجذوة التي كانت تظهر له أحيانًا في الغربية على هيئة ومضة وانشداد، وأحيانًا أخرى تدفعه بقوة إلى إنكاء ذلك الأذكار البعيد، الذي يبدو مثل قنديل بعيد، إنه يرى الآن أن عليه إعادة نفسه بما آل إليه، نقطة الصفر التي تنفض غبار الزمن وتعيد تشكيل ذاتها مرة أخرى.

«ابن من أنا؟».

سيظلّ السؤال يلاحق ريان وهو في خضمّ البحث عن ذات استلت عنوة منه، ويسعى الآن إلى بنائها، بالرغم من المهالك المحيطة، لتكون علامة في الرحلة المستمرة.

تجري مراسيم الجنازة بانسيابية وهدوء في صباح، لم ترسل الشمس بعد سياطها الحامية على رؤوس الناس، البناية المجاورة ما زالت ترسم ظلها على الساحة، حاملو التابوت، المصنوع من خشب البلوط المصقول، يرفعون أركانه الأربعة من ساحة زبيدة باتجاه المدفن، هي مسافة لا تتعدى الخمسين مترًا، لكنها تزدهم بالسيارات والبضائع المقدسة على الأرصفة، لا بدّ لهم لاجتياز هذه المسافة من المرور بطرق متعرجة بين الأكداس، في الأصل هم لا يعانون من ثقل التابوت، فهو يحمل رفات جسد حشر بطريقة ما داخل تمثال من الشمع.

«نجمة الحسن» وتحت إشرافها المباشر قضت ليلة أمس تراقب نبش قبر «يارا» في مرقد العاشقين، وإخراج الرفات بعناية وتركيز عاليين، مخافة تكسّر ما تبقى من الجسد الجميل، كانت تتادي على ثلاثة رجال نزلوا إلى اللحد وبدؤوا بالمهمة الشاقة، التي حرصت نجمة على متابعتها بدقة، حالما أمسى الرفات بالخارج أشاحت بوجهها جانبًا، إذ خشيت أن ترى «يارا» الجميلة بهذا الشكل.

«سوا القبر جيدًا، أن يكون معدًا لمن سيشغله».

في داخل تمثال من الشمع، والذي يتطابق مع شكل «يارا» وذو تجويف فارغ، أمرت العمال أن يفتحوه إلى نصفين وأن تحشر الرفات بداخله، عندما حدث هذا قامت بنفسها بغلق التمثال الشمعي بإحكام، عبر إزار بطوله، تبسمت ليارا، التي رأتها راقدة، وضع التمثال داخل التابوت وطلبت من سائق سيارة الأجرة المشي الهوينيا، كانت حريصة على أن لا يتعرض التمثال والتابوت إلى أيّ خدش في أثناء نقله من منطقة أم العظام إلى محلة قنبر علي.

رهن قليل حضروا إلى مراسيم التشييع، بادر جلان بإنزال التابوت عن سقف السيارة، عاونهما اثنان آخرا وساروا به من ساحة زبيدة، المشي فيه بطء مقصود من الحاضرين، ربما احترامًا لرقدة الميت أو أنهم شقوا الطريق بحرص وسط البضائع المقدسة.

الفناء الخلفي، الملحق بالجامع سابقًا، انفتح من أضلاعه الثلاثة وأصبح ساحة شبه مدورة، تنتهي بمكان المدفن، الذي يلتصق بضلع الجامع الجنوبي، بعض من الشجيرات الحديثة الزراعة مشتولة على أطراف الساحة المدورة مع مصاطب ثنائية، تتوزع بانتظام على مساحة الساحة، في الوسط توجد حفرة مربعة على هيئة نافورة، تتدفق إلى الأعلى وتعود المياه إلى الحوض بشكل رذاذ، يرسم أوراق أزهار وتويج.

اجتاز حاملو التابوت المسافة وأنزلوه بالقرب من بوابة زجاجية كبيرة، بابان مغلقان، الأول يبرز منه ضلع قبر الولي الصالح، والثاني ترى فيه قبة مدورة، بالتأكيد أسفلها قبر اليهودي ذي الثعبان، الباب الثالث -الذي فتح- كان بطول مترين وعرض متر ونصف، فيه حفرة معدة لإنزال التابوت.

تعاون أسطى طه وجاكوبيان ورجل ذو عضلات بارزة على حمل التابوت بتأن، وإنزاله في الحفرة، غاص نصف ارتفاعه تحت الأرض والنصف الآخر برز فوقها، رجل برفش أهال التراب

على الجوانب وضيق على أركان التابوت، رشّ جاكوبيان ماء فوق التراب وتقدم بستاني لزرع بعض الشتلات في التراب المبلول.

لم يبق إلا أن تتعالى الصلوات على روح الميثة، ثمّة «ماسيرة» مع خمس فتيات أحضرن لهذا الغرض ويسكنّ في دير منزو، بالقرب من انعطافة نهر دجلة، الدير قديم يعود تاريخه إلى أواخر الدولة الساسانية، الراهبة المعتزلة الحياة اتخذته مسكناً وتدرس لمن يرغب من الفتيات اللغة الأرامية القديمة.

«ماسيرة» بصوت خافت قرأت في كتاب صغير في يدها، ثم ارتفع صوتها في ابتهالات منغمة باللغة السريانية، الفتيات الخمس رددن معها تلك الأدعية، حين انتهين بحث الحاضرون عن شيخ الجامع، حسب الاتفاق أن يقرأ سورة الفاتحة لكنه يبدو غير حاضر، عندها تقدم رجل ذو رداء أبيض، تطوع من تلقاء نفسه وتقدم صوب التابوت، رفع يديه إلى مستوى وجهه وابتهل بصوت رخيم، كانت أنغام صوته تجلب الخشوع إلى الحاضرين، أما هو فقد أشرق وجهه ثم غام تحت غمامة، ثم انشاحت تقاطيعه، عندها خلع الرداء الأبيض وغطى التابوت، تحته كان يرتدي ملابس عصرية، حانت منه التفاتة صوب ريان فأدرك الأخير أن تلك هي الملابس التي تركها في «تمبكتو» إلى عرباب الكتب، الذي ينزل نتف الثلج فوق المنائر، التي تشبه القباب.

حاضرو مراسيم التشييع وضعوا وروداً فوق القبر، إلا هند، كان بيدها طوق من الياسمين، وضعت عند رأس الميثة وهمست لها، أغلق أسطى طه الباب الزجاجي إيذاناً بانتهاء المراسيم، انسحب الحاضرون فرادى، إلا جاكوبيان، الذي تسرح عيناه نحو المدفن، هند علي مقربة منه، وقفا جانباً بانتظار الأب أن ينتهي من سقي المزروعات والذهاب إلى البيت معاً، مخلفين وراءهم المقبرة النموذجية، التي أنشئت حديثاً في محلة قنبر علي.

«عندما أرقص، تأتيني الأنوار، هابطة من السماء، فأتزين بضونها، كمن يستحم».

يارا.





